رسالة التوحيد

تأليف

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

رضى الله عنـــــــه

طبعها بإذن الورثة مصححاً إياها على نسخة المؤلف وجدول وضعه (رح) لتصحيحها ، ومعلقاً عليها تعليقات استفاد بعضها منه فى الدرس

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

(الطبعة الحادية عشرة فى سنة ١٣٦٥ وهى كالطبعة التى قبلها فى حواشيها)

طبع بمطبعة دار إحياء الكتب العربية
لأصحابها عيسى البابى الحلبى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَالِكِ
يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ٧

﴿ وبعد ﴾ فلما كنت فى بيروت من أعمال سورية أيام بعدى عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية ودعيت فى سنة ١٣٠٣ إلى تدريس بعض العلوم فى المدرسة السلطانية ، ومنها كان علم التوحيد رأيت أن المختصرات فى هذا الفن ربما لا تأتى على الغرض من إفادة التلامذة ، والمطولات تعلو على أفهامهم ، والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم ، فرأيت من الأليق أن أملى عليهم ما هو أمس بحالهم ، فكانت أماليّ مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم ، أقربها إلى كفاية الطالب ما أملى على الفرقة الأولى فى أسلوب لا يصعب تناوله ، وان لم يعهد تداوله : تمهيد مقدمات ، وسير منها إلى المطالب ، من غير نظر الا الى صحة الدليل ، وان جاء فى التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف، رامياً إلى الخلاف من مكان بعيد ، حتى ربما لا يدركه إلا الرجل الرشيد، غير أن تلك الأمالى لم تحفظ الا فى دفاتر التلامذة ، ولم أستبق لنفسى منها شيئاً . وعرض بعد ذلك ما استقدمنى إلى مصر ، وكان من تقدير الله

أن أشتغل بغير التعليم ، حتى أتى النسيان على ما أمليت ، وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت ، إلى أن خطر لى من مدة أشهر خاطر العود إلى ما تهواه نفسى ، ويصبو إليه عقلى وحسى ، وأن أشغل أوقات فراغى بمدارسة شئ من علم التوحيد ، علماً منى أنه ركن العلم الشديد ، فذكرت سابق العمل ، وتعلق بمثله الأمل ، وعزمت أن أكتب إلى بعض التلامذة ليرسل إلىّ ، ما تلقاه بين يدىّ ، لكيلا أنفق من الزمن ما أنا فى أشد الحاجة إليه فى إنشاء ما أرى التعويل عليه ، وذكرت ذلك لأخى(١) فأخبرنى أنه نسخ ما أملى على الفرقة الاولى . فطلبته وقرأته فإذا هو قريب مما أحب ، قد يحتاج إليه القاصر ، وربما لا يستغنى عنه المكاثر ، على اختصار فيه مقصود ، ووقوف عند حد من القول محدود ، قد سلك فى العقائد مسلك السلف ، ولم يعب فى سيره آراء الخلف ، وبعد عن الخلاف بين المذاهب ، بعد مليه عن أعاصير المشاغب ، لكن وجدت فيه إيجازاً فى بعض المواضع ، ربما لا ينفذ منه ذهن المطالع وإغفالا لبعض ما تمس الحاجة إليه وزيادة عما يجب فى مختصر مثله أن يقتصر عليه ، فبسطت بعض عباراته ، وحررت ما غمض من مقدماته ، وزدت ما أغفل ، وحذفت ما فضل ، وتوكلت على الله فى نشره ، راجياً أن لا يكون فى قصره ما يحمل على إغفال أمره ، أو يغض من قدره ، فما من أحد بدون أن يعين ولا بفوق أن يعان ، والله وحده ولى الأمر وهو المستعان

(١) هو حمودة بك عبده وكان تلميذا فى المدرسة السلطانية فى ذلك العهد

مقدمات

التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسائل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم

أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له . وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه ، وهو إثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلق الأكوان ، وانه وحده مرجع كل كون ، ومنتهى كل قصد[1] وهذا المطاب كان الغاية العظمى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز وسيأتى بيانه

---

(١) فات الأستاذ أن يصرح بتوحيد العبادة وهو أن يعبد الله وحده ولا يعبد غيره بدعاء ولا بغير ذلك مما يتقرب به المشركون الى ما عبدوا معه من الصالحين والأصنام المذكر بهم ، وغير ذلك كالنذور والقرابين تذبح بأسمائهم أو عند معابدهم ، وهذا التوحيد هو الذى كان أول ما يدعو اليه كل رسول قومه ، بقوله (اعبدوا الله مالكم من إله غيره)

وقد يسمى علمَ الـكلام ، إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هى أن كلام الله المتلو حادث أو قديم ، وإما لأن مبناه الدليل العقلى وأثره يظهر من كل متـكلم فى كلامه وقلما يرجع فيه إلى النقل ، اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى ، ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها ، وان كان أصلا لما يأتى بعدها ، واما لأنه فى بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق فى تبيينه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر ، وأبدل المنطق بالـكلام(١) للتفرقة بينهما

* * *

هذا النوع من العلم ــ علم تقرير العقائد و بيان ما جاء فى النبوات ــ كان معروفاً عند الأمم قبل الإسلام ففى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده ، وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لـكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليـل العقلى و بناء آرائهم وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الـكون ، بل كانت منازع العقول فى العـلم ومضارب الدين فى الالزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض . وكثيراً ما صرح الدين

(١) الصواب : وابدل الـكلام بالمنطق . قال فى المصباح المنير : وأبدلته بكذا إبدالا ــ نحيت الأول وجعلت الثانى مكانه

على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته . فكان جلّ ما فى علوم الكلام تأويل وتفسير ، وإدهاش بالمعجزات ، أو إلهاء بالخيالات يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الاسلامية

جاء القرآن فنهج بالدين منهجاً لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة ، منهجاً يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه ، فلم يقصر الاستدلال على نبوة النبى ﷺ بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة ، بل جعل الدليل[1] فى حال النبى مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو فى مثل أقصر سورة منه ، وقص علينا من صفات الله ما أذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم ، لكن لم يطلب التسليم به ، لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه أقام الدعوى وبرهن[2] وحكى مذاهب المخالفين

---

(١) أى الدليل الذى هو العمدة فى التحدى وان وجد غيره بل هذا الدليل مركب من عدة أدلة أولها حال النبى فى أميته وظهور العلم على لسانه فى كهولته ، ومنها اعجاز القرآن ببلاغته ، واقوى منه إعجازه بما فيه من العلوم الالهية والتشريع والاخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة مما بينه المؤلف فى الكلام على نبوة محمد (ص)

(٢) قال فى الأساس : ابره : جاء بالبرهان ، وبرهن مولد

وكر عليها بالحجة[1] وخاطب العقـل ، واستنهض الفـكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحـكام والاتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه ، حتى إنه فى سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر أن للخلق سـنة لا تغير[2] وقاعدة لا تتبدل ، فقال : (٤٨ : ٣٢ سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبـديلا) وصرح[3] (١٣ : ١١ ان الله لا يغيرما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٣٠ : ٣٠ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) واعتضد بالدليل حتى فى باب الأدب فقال (٤١ : ٣٤ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولى حميم) وتآخى العقـل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل ، بتصريح لا يقبل التأويل

وتقرر بين المسلمين كافة — إلا من لا ثقـة بعقله ولا بدينه — ان من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم بوجود الله و بقـدرته على إرسال الرسـل وعلمه بما يوحى به إليهم

(١) أى حمل عليها مجالدا لها بالحجة

(٢) تغير بفتح التاء أصله تتغير حذف منـه التاء وأثبتها فى تتبدل على الأصل ويجوز أن تكون تغير بضم التاء بالبناء للمفعول أى لايغيرها أحد ولاتتبدل بنفسها (٣) صرح يتعدى بالباء وهنا قدر بعـده القول أو ضمن معناه

و إرادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذاك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة ، وكالتصديق بالرسالة نفسها ، كما أجمعوا على أن الدين ان جاء بشئ قد يعلو على الفهم ، فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل

جاء القرآن يصف الله بصفات ـ وان كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به فى مخاطبات الأجيال السابقة ـ فمن صفات البشر ما يشاركها فى الاسم أو فى الجنس[1] كالقدرة والاختيار والسمع والبصر . وعزا اليه أموراً يوجد ما يشبهها فى الانسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين ، ثم أفاض فى القضاء السابق وفى الاختيار الممنوح للانسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين ، ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر فى الثواب والعقاب إلى مشيئة الله ، وأمثال ذلك مما لا حاجة إلى بيانه فى هذه المقدمة .

فاعتبار حكم العقل ، مع ورود أمثال هذه المتشابهات فى النقل ، فسح مجالا للناظرين ، خصوصاً ودعوة الدين إلى الفكر فى المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط ، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد إلى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو فى التجريد ، ولا دنو

(١) قولان اختار المؤلف فى الدرس أولهما

من التحديد[1]

مضى زمن النبي ﷺ وهو المرجع فى الحيرة ، والسراج فى ظلمات الشبهة ، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر فى مدافعة الأعداء ، وجمع كلمة الأولياء ، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ليبتلوها بالبحث فى مبانى عقائدهم . وما كان من اختلاف قليل رد إليهما ، وقضى الأمر فيه بحكمهما ، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ان كانت حاجة إلى الاستشارة . وأغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لا فى أصول العقائد . ثم كان الناس فى الزمنين يفهمون اشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يوهم التشبيه ، ولا يذهبون وراء ما يفهمه ظاهر اللفظ[2]

(١) الغلو فى التجريد مذهب المعطلة منكرى الصفات ، والدنو من التحديد مذهب المشبهة ، وبينهما مذهب السلف الوسط ، وهو أن نصفه تعالى بما وصف به نفسه بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل ، ويقرب منه مذهب متكلمى الخلف الذين يمنعون التعطيل والتمثيل ، دون التأويل لبعض الصفات والأفعال

(٢) التحقيق أن السلف كانوا يأخذون فى الصفات الالهية بمعانى الألفاظ فى اللغة مع تنزيهه تعالى عن مشابهة شيء من خلقه فكما أن ذاته ليست كغيرها من الذوات فكذلك صفاته وأفعاله ، ولا يذهبون إلى ما وراء ذلك من لوازم ظاهر اللفظ كالتشبيه والتحديد المأخوذ من اطلاقه فى الأصل على المخلوق فان التنزيه قد جعل المشاركة فى اللفظ اسمية أو جنسية لاشخصية كما تقدم فى الصفحة السابقة

كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ما حدث فى عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله . هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الاسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التى استقاموا عليها ، و بقى القرآن قائماً على صراطه[1] (١٥ : ٩ انا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون) وفتح للناس باب لتعدى الحدود التى حدها الدين ، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى ، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول فى أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم ، وغلب الغضب على كثير من الغالين فى دينهم ، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الاصالة منهم ، فقيت أمور على غير ما يحبون

وكان من العاملين فى تلك الفتنة عبد الله بن سبأ : يهودى أسلم وغلا فى حب على كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه[2]

---

(١) أى وقعت الصدمة على الاسلام وعلى أهله الذين أحدثوا فيه فأثرت فيهم ولم تؤثر فى القرآن الذى كفل الله حفظه فبقى حجة عليهم

(٢) ان ابن سبأ فعل ما فعل بغضا فى الاسلام لاحبا فى على ، فاسلامه كان خديعة وله نظراء فى ذلك من اليهود ، ومثلهم بعض مجوس الفرس الذين أظهروا الاسلام ، وتستروا بالتشيع لعلى ولآل البيت عليهم السلام ، كلهم كانوا يقصدون إفساد الاسلام و إزالة ملكه بالتفريق بين أهله ، وأشار المصنف إلى ذلك فيما ترى فى ص ١٥

وأخذ يدعو الى أنه الأحق بالخلافة ، وطعن على عثمان فنفاه ، فذهب إلى البصرة و بث فيها فتنته ، فأخرج منها فذهب إلى الكوفة ونفث ما نفث من سم الفتنة ، فنفى منها فذهب إلى الشام فلم يجد فيها ما يريد فذهب إلى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته ، إلى أن كان ما كان مما ذكرناه ، ثم ظهر بمذهبه فى عهد على فنفاه إلى المدائن ، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده

توالت الأحداث بعد ذلك ، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان إلى الأمويين ، غير أن بناء الجماعة قد انصدع ، وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة ، وأخذ الأحزاب فى تأييد آرائهم ، كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل ، وكانت نشأة الاختراع فى الرواية والتأويل ، وغلا كل قبيل ، فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين ، وغلا الخوارج فكفروا من عداهم ، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية ، وتكفيرهم لمن خالفهم زمناً طويلا ، الى أن تضعضع أمرهم بعد حروب أكلت كثيراً من المسلمين ، وانتشرت فارّتهم فى أطراف البلاد ، ولم يكفوا عن إشعال الفتن ، و بقيت منهم بقية الى اليوم فى أطراف افريقيا

وناحية من جزيرة العرب[١] وغير بعض الشيعة فرفعوا عليا أو بعض ذريته الى مقام الألوهية أو ما يقرب منه[٢] وتبع ذلك خلاف فى كثير من العقائد

---

(١) إنه يعنى بهذه البقية : الاباضية الذين فى طرابلس الغرب وصحراء الجزائر وزنجبار من افريقية ، وفى عمـان من جزيرة العرب ، ولـكن الاباضية يتبرءون من الخوارج الذين يـكفرون من يخالفهم كالصفرية والازارقة ، ويفرقون بين الـكفر المخرج من الملة كالشرك وما دونه من الفسق ، ويقولون بالامامة ، ولـكن لهم تشديدا فى قاعدة الولاية والبراءة فيتولون الشيخين وجميـع الصحابة الذين كانوا قبل خروج الناس على عثمان وما أنـكر عليـه الصحابة (رض) وفتنة على ومعاوية ويقولون إن عليا هو الامام الحق وإن معاوية كان باغيـا بخروجه عليـه ولذلك يخطئون عليا فى قبول التحكيم فى الأمر وهو يعلم أنه صاحب الحق . ولهم فيمن قبلوا التحكيم ثلاثه أقوال : البراءة منهم والوقف فيهم وثالثها الولاية لهم كسائر الصحابة وهو قول أهل السنة . وهم فى تأويل آيات الصفات وأحاديثها بين الأشـاعرة والمعتزلة . وأما العمل بالأوامر والنواهى فهم أشد الفرق الاسـلامية اذعانا وطاعة لها كالوهابية من أهل السنة لايـكاد يوجد فى بلادهما تارك صلاة أومانع زكاة أومجاهر بكبيرة

(٢) منهم الذين رفعوه إلى الالوهية وحده ، ومنهم من جعلوها موروثة فى بعض ذريته وهم الباطنية ومنهم من قالوا بعصمته وعصمة بعض أفراد ذريته ، وغلوا فيهم على درجات مختلفة

غير أن شيئاً من ذلك لم يقف فى سبيل الدعوة الاسلامية ، ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتنائية عن مثار النزاع ، وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم ، والمصريين والافريقيين ومن يليهم ، واستراح جمهور عظيم من العمل فى الدفاع عن سلطان الاسلام ، وآن لهم أن يشتغلوا فى أصول العقائد والأحكام ، بما هداهم إليه سير القرآن ، اشتغالا يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ، ولا يغض فيه من نظر الفكر ، ووجد من أهل الاخلاص من انتدب للنظر فى العلم والقيام بفريضة التعليم ، ومن أشهرهم الحسن البصرى فكان له مجلس للتعليم والافادة فى البصرة يجتمع اليه الطالبون من كل صوب ، وتمتحن فيه المسائل من كل نوع ، وكان قد التحف بالاسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة ، دخلوه حاملين لما كان عندهم ، راغبين أن يصلوا بينه و بين ما وجدوه ، فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن ، واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من اطلاق العنان للفكر ، وشارك الدخلاء ، من حق لهم السبق من العرفاء ، و بدت رءوس المشاقين ، تعلو بين المسلمين

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة

ولم يتب . اختلف فيها واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصرى واعتزله يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه ، غير أن كثيراً من السلف ومنهم الحسن — على قول — كان على رأى أن العبد مختار فى أعماله الصادرة عن علمه وارادته(١) وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا الى أن الانسان فى عمله الارادى كأغصان الشجرة فى حركاتها الاضطرارية ، كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لا يحفلون بالامر ، ولا يعنون برد الناس إلى أصل ، وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل إلى ما شاء ، سوى أن عمر بن عبد العزيز أمر الزهرى بتدوين ما وصل اليه من الحديث(٢) وهو أول من جمع الحديث

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين بل امتد الى اثبات صفات المعانى للذات الالهية أو نفيها عنها ، والى تقرير سلطة العقل فى معرفة جميع الأحكام الدينية حتى ما كان منها فروعاً وعبادات (غلواً فى تأييد خطة القرآن) أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى ـ على ما سبق بيانه ـ ثم غالى آخرون وهم الأقلون فمحوها

(١) بل كان جمهور السلف على هذا وتبعهم أكثر أهل الحديث
(٢) الصواب أنه أمر بذلك أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وأما محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى فكان يكتب السنن والآثار من تلقاء نفسه

بالمرة ، وخالفوا فى ذلك طريقة الكتاب عناداً للأولين ، وكانت الآراء فى الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء فى العقائد كأنها مبنى من مبانى الاعتقاد الإسلامى

تفرقت السبل بأتباع واصل[١] وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقه بين ما كان منه راجعاً إلى أوليات العقل ، وما كان سراباً فى نظر الوهم ، فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق على أصل من أصولى النظر، ولجوا فى ذاك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات ، أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة فغلب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين ، وإن لم يكن لهم عضد من الحاكمين

عرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس فى إقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين ، واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم ، وأعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم ـ فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين فى شىء . وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لادين له وغير أولئك من الفرق الفارسية ، فأخذوا ينفثون من أفكارهم ،

(١) هم المعتزلة

ويشيرون بحالهم وبمقالهم إلى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم ، فظهر الالحاد ، وتطلعت رءوس الزندقة حتى صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم ، وإبطال مزاعمهم

فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتاً لم يتكامل نموه ، وبناء لم يتشامخ علوه ، وبدأ علم الكلام كما انتهى مشوباً بمبادئ النظر فى الكائنات جرياً على ما سنه القرآن من ذلك ، وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته(١) وانتصر للأول جمع من خلفاء العباسيين وأمسك عن القول أو صرح بالأزلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة ، أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة ، وأهين فى ذلك رجال من أهل العلم والتقوى ، وسفكت فيه دماء بغير حق . وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين

(١) التحقيق أن كلا من القولين مبتدع فوصف القرآن بالقدم والازلية لا أصل له من الكتاب والسنة ولم يقل به أحد من الصحابة ولاالتابعين ولكنه بنى على نظرية فى الرد على مبتدعى القول بخلقه من منكرى صفات الله عز وجل وهى أن القرآن كلام الله فهو صفة من صفاته الازلية ، ومن ثم صار القول بقدمه من اصطلاح متكلمى أهل السنه ، وأنصار السلف من أهل الحديث ينكرون على متكلمى الأشاعرة أقوالهم فى الكلام النفسى واللفظى ، وهى فلسفة . ليتها لم تكن ، وانظر حاشيتنا الآتية على صفة الكلام

على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل ، وما توسط أو غلا من الاستمساك بظاهر الشرع ، والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية واجبة الاتباع : ما تعلق منها بالعبادت والمعاملات وجب الوقوف عنده ، وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض توطين النفس عليه ، وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحافهم بالإسلام وأفرطوا فى التأويل ، وحولوا كل عمل ظاهر إلى سر باطن ، وفسروا الكتاب ، بما يبعد عن تناول الخطاب ، بعد الخطأ عن الصواب ، وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ، ولهم أسماء أخر تعرف فى التاريخ ، فكانت مذاهبهم غائلة الدين ، وزلزال اليقين ، وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة

مع اتفاق السلف وخصومهم فى مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم كان أمر الخلاف بينهم جللا ، وكانت الأيام بينهم دولا ، ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض ، واستفادة كل فريق من صاحبه ، إلى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى أوائل القرن الرابع[1] وسلك مسلكه المعروف وسطاً بين موقف السلف وتطرُّف من

(١) ولد سنة ٢٧٠ وقيل ٢٦٠ وتوفى سنة ٣٣٠ ونيف وقيل ٣٢٤

خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر ، وارتاب فى أمره الأولون وطعن كثير منهم على عقيدته ، وكفره الحنابلة واستباحوا دمه . ونصره جماعة من أكابر العلماء كأبى بكر الباقلانى و إمام الحرمين والاسفراينى وغيرهم[١] وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة[٢] فانهزم من بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان : قوة الواقفين عند الظواهر ، وقوة الغالين فى الجرى خلف ما تزينه الخواطر . ولم يبق من أوائك وهؤلاء بعد نحو (من) قرنين الا فئات قليلة فى أطراف البلاد الاسلامية

غير أن الناصرين لمذهب الأشعرى بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدى اليه من عقائد الايمان ، ذهاباً منهم إلى أن عدم الدليل يؤدى إلى عدم المدلول ، ومضى الأمر على

(١) أى نصره هؤلاء بعد موته (٢) راجت هذه التسمية بعلو جاه هؤلاء النظار عند الخلفاء والأمراء وكثرة أتباعهم من العلماء وقد كان الأشعرى معتزليا فرجع الى مذهب أهل السنة فى أهم مسائل الخلاف بينهم و بين المعتزلة ثم انتهى إلى مذهب السلف من كل وجه وصرح باتباع الامام احمد بن حنبل ،كما ترى فى كتابه الابانة . وكذلك كبار النظار من أنصاره كامام الحرمين وقبله والده الامام الجوينى و بعدهما الغزالى ثم الرازى

ذلك إلى أن جاء الإمام الغزالى والامام الرازى ومن أخذ مأخذهما فخالفوهم فى ذلك ، وقرروا أن دليلاً واحداً أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجر فى الاستدلال

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ، ولم يكن من همّ أهل النظر من الفلاسفة الا تحصيل العلم ، والوفاء بما تندفع اليه رغبة العقل من كشف مجهول ، أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاءوا وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته ، ويدع لهم من اطلاق الارادة ما يتمتعون به فى تحصيل لذة عقولهم ، و إفادة الصناعة وتقوية أركان النظام البشرى بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة فى ضمائر الكون ، مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا فى قوله (٢ : ٢٩ خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) إذلم يستثن من ذلك ظاهراً ولاخفياً ، وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقاب فى سبيلهم إلى ما هدوا اليه بعدما رفع القرآن من شأن العقل ، وما وضعه من المكانة بحيث ينتهى اليه أمر السعادة ، والتمييز بين الحق والباطل ، والضار والنافع ، و بعدما صح من قوله عليه السلام « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[1] و بعد ما سن لنا فى غزوة بدر من سنة

(١) رواه مسلم من حديث أنس وعائشة بلفظ « بأمر دنياكم »

الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم (الأول) الاعجاب بما نقل إليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصاً أرسطوا وأفلاطون ووجدان اللذة فى تقليدهما لبادئ الأمر (والثانى) الشهوة الغالبة على الناس فى ذلك الوقت وهو أشأم الأمرين : زجوا بأنفسهم [1] فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين ، واصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة [1] فمال حماة العقائد عليهم . وجاء الغزالى ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالهيات وما يتصل بها من الأمور العامة وأحكام الجواهر والأعراض ومذاهبهم فى المادة وتركيب الأجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئاً من مبانى الدين واشتدوا فى نقده . و بالغ المتأخرون منهم فى تأثرهم حتى

(١) استئناف لبيان ثانى الأمرين وكونه اشأمهما حاصله أن الفلاسفة لو لم يخلطوا فنونهم بالدين ويزجوا بأنفسهم فى المنازعات الدينية لتركوا وشأنهم فى البحث واذاً لارتقت علومهم وارتقت بها الصناعة واتسع العمران . ذكره المؤلف فى الدرس وكان من رأيه أنه يجب ألا تمزج الفلسفة والعلوم الدنيوية بالمسائل الدينية

(٢) أى اصطدموا مصاحبين لعلومهم بما انطبعت عليه أنفس الجمهور من المنازعات الدينية

كاد يصل بهم السير الى ما وراء الاعتـدال ، فسقطت منزلتهم من النفوس ، ونبذتهم العامة ، ولم تحفل بهم الخاصة ، وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامى من سعيهم .

هـذا هو السبب فى خلط مسائل الـكلام بمذاهب الفلسفة فى كتب المتأخرين كما تراه فى كتب البيضاوى والعضد وغيرهم[1] . وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعاً علماً واحداً والذهاب بمقدماته ومباحثه الى ما هو أقرب الى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة ، وتغلب الجهال على الأمر ، وفتـكوا بمـا بقى من أثر العـلم النظرى النابع من عيون الدين الاسـلامى ، فانحرفت الطريق بسالـكيها ، ولم يعـد بين الناظرين فى كتب السابقين إلا تحـاور فى الألفاظ أو تناظر فى الأساليب ، على أن ذلك فى قليل من الـكتب اختارها الضعف وفضلها القصور[2]

(١) الظاهر أن يقال وغيرها أى الـكتب ، أو غيرهما أى البيضاوى والعضد ، ولعله كان ذكر غيرهما فسقط من النسخ ولا أذكر انه صححه فى الدرس ولم أجده فى الجدول الذى صحح ونقح به الطبعة الأولى

(٢) يعنى أن المتأخرين أساءوا فى اختيار كتب من قبلهم وكانت طريقتهم فى التدريس البحث فى ألفاظها وأساليبها ، دون تحرير مسائل العلم وتحقيقها ، وكان يقول فيهم : انهم يتعلمون كتبا لا علما

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم . فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم فوضعوا ما لم يعد للاسلام قِبَلٌ باحتماله . غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً ، ومن البعد عن ينابيع الدين أعواناً ، فشردوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا فى التضليل والتكفير ، وغلوا فى ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم فى دعوى العداوة بين العلم والدين . وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب : هذا حلال وهذا حرام ، وهذا كفر وهذا إسلام . والدين من وراء ما يتوهمون ، والله جل شأنه فوق ما يظنون وما يصفون[1] ولكن ماذا أصاب العامة فى عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط ؟ شر عظيم ، وخطب عميم

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم[2] ينبئك كيف أسس على قواعد

(١) راجع ترجمة الأشعرى فى الطبقات الكبرى للسبكى

(٢) فات المؤلف أن يذكر فى هذه الخلاصة التاريخية انه بعد أن استفحل سلطان الأشعرية فى القرون الوسطى وضعف أهل الحديث ومتبعو السلف ظهر فى القرن الثامن المجدد العظيم شيخ الاسلام أحمد تقى الدين بن تيمية الذى لم يأت الزمان له بنظير فى الجمع بين العلوم النقلية والعقلية وقوة الحجة فنصر مذهب السلف على المذاهب الكلامية كلها ببرهانى العقل والنقل ، وقد أحيت مصر والهند كتبه وكتب تلميذه الاكبر العلامة ابن القيم بعد أن كان الاهتداء بها محصورا فى بلاد نجد ، وهى الآن تعم الشرق والغرب ، وستكون عمدة جميع مسلمى الأرض

من الكتاب المبين ، وكيف عبثت به فى نهاية الأمر أيدى المفرقين ، حتى خرجوا به عن قصده ، و بعدوا به عن حده

والذى علينا اعتقاده أن الدين الاسلامى دين توحيد فى العقائد ، لا دين تفريق فى القواعد ، العقل من أشد أعوانه ، والنقل من أقوى أركانه ، وما وراء ذلك فنزعات شياطين ، وشهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كل بعمله ، قاض عليه فى صوابه وخطله

الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل ، لا استرسالا مع التقليد ، حسبما أرشدنا اليه الكتاب ، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ اليه من دقائقه ، تحصيلا لليقين بما هدانا اليه ، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم ، وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك ، واستتباعه لهدم معتقداتهم ، وامّحاء وجودهم الملى ، وحق ما قال ، فان التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل ، وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار ، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ، ولا تجمل بحال الانسان

أقسام المعلوم

يقسمون المعلوم الى ثلاثة أقسام : ممكن لذاته ، وواجب لذاته ، ومستحيل لذاته[(١)] ويعرّفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هى ، أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هى ، والممكن ما لا وجود له ولا عدم من ذاته وانما يوجد لموجد ويعدم لعدم سبب وجوده . وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره ـ وإطلاق

(١) هـذه القسمة عقلية وهى للحصر لأن مايتعلق به العلم إما ثابت قطعا لا يقبل الانتفاء لذاته وهو الواجب ، وإماضده وهو المستحيل وإما واسطة بينهما وهو ما لا تقتضى ذاته الثبوت ولا الانتفاء بل يجوز لهـا الأمران بحسب العلل وهو الممكن . فمعنى كون الشيء ممكنا أومستحيلا أو واجبا لذاته هو كونه كذلك لغير علة اقتضت ذلك غير ذاته وحقيقته أى إن ذاته إذا تصورت مجردة من كل اعتبار لم تكن إلا كذلك ، والمراد بالامكان والوجوب والاستحالة ما كان كذلك بحكم العقل القاطع لا العادة ، فمثال المستحيل اجتماع النقيضين ككون الشيء موجودا معدوما فى آن واحد أى موجودا غير موجود فهذا معلوم ـ أى متعلق للعلم ـ يجزم العقل بعدمه أى عدم تحققه لذاته ، أى إن ذاته لايمكن أن تكون ثابتة ، وليس منه مشى الانسان على الماء ، أوطيرانه فى الهواء ، وإنما هذا مستحيل عادة ، ومثال الواجب الوجود المطلق والزوجية للاربعة فانك لا يمكنك أن تتصور العدم المحض ولا كون الأربعة ليست زوجا ، ومثال الممكن ظاهر فان جميع هذه الموجودات التى ندركها بحواسنا ممكنة الوجود كما يعلم مما يأتى فى الرسالة .

المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز فان المعلوم حقيقة لابد أن يكون له كون فى الواقع ينطبق عليه العلم ، والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه فى أحكامه ، وانما المراد ما يمكن الحكم عليه وان فى صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها الى الحكاية عنه

﴿ حكم المستحيل ﴾

وحكم المستحيل لذاته أن لا يطرأ عليه وجود فان العدم من لوازم ماهيته[1] من حيث هى فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية

(١) يفسرون الماهية بأنها ما به الشيء هو هو ، ونوضح ذلك بقولنا إن ماهية الشيء ترادف حقيقته فى الجملة ، مثال ذلك أن ما يتصوره الذهن من معنى الانسانية الكلى الذى يوجد فى كل إنسان غير مصاب بعلة ككونه حيوانا ناطقا عاقلا يسمى ماهية الانسان وحقيقته ولكن تختلف التسمية باختلاف الاعتبار فما يتعلق فى الذهن من معنى الشيء الذى تتقوم به ذاته ويجاب به إذا سئل عنه بما هو ذلك الشيء ؟ يسمى ماهية وإنما يسمى حقيقة أو ذاتا باعتبار تحققه فى الواقع ولذلك يطلق لفظ الماهية على ما لا تحقق له كمفهوم العنقاء ولا يطلق عليه لفظ الحقيقة ، ولازم الشيء مالا ينفك عنه كلزوم الانقسام إلى متساويين للزوج

وكلمة الماهية وتفسيرها والسؤال عن الشيء بما هو وما خصوه به واشترطوه فى جوابه كل ذلك من اصطلاح علم المنطق لا من أصل اللغة . فالعرب تقول ما كذا ؟ لا ما هو كذا ، وقد يجيبون عنه بأى صفة تميز الشيء المسئول عنه عن غيره

من حيث هى عنهـا ، وهو يؤدى الى سلب الماهية عن نفسها(١) بالبداهة فالمستحيل لا يوجد فهو ليس بموجود قطعاً ، بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة(٢) كما أشرنا اليه ، فهو ليس بموجود لا فى الخارج ولا فى الذهن

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجـد الا بسبب وأن لا ينعدم الا بسبب ، وذلك لأنه لا واحـد من الأمرين له لذاته ، فنسبتهما الى ذاته على السواء . فان ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد

(١) قال المؤلف إن هـذا من القضايا التى قياساتها معها لأن سلب اللازم إنما يكون بسلب الملزوم وهو كون الماهية هى ، أى فهو كسلب الانقسام إلى متساويين عن عدد الزوج وهو نفى لـكونه زوجا فكأنك قلت إنه زوج غير زوج

(٢) يريد بهـذا أن ما ذكر من ماهية المستحيل هو أمر اعتبارى أو فرضى يخترعه العقل لأجل الحـكاية عنه كما تقدم فى الرسالة قريبا لا لأن له تحققا فى نفسه فالحق أن المستحيل ليس له ماهية ثابتة فى الذهن ولا حقيقة فى الخارج ، أما الثانى فلان ما فى الخارج هو الموجود بالفعل والمستحيل لايوجد ، وأما الأول فلان ما فى الذهن لا يكون إلا صورة لما فى الخارج منه ولذلك قال فهو ليس بموجود الخ أى بل هو أمر فرضى أو اعتبارى

المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة(١)

ومن أحكامه أنه ان وجد يكون حادثاً لأنه قد ثبت أنه لا يوجد الا بسبب ، فاما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده ، والأول باطل والا لزم تقدم المحتاج على ما اليه الحاجة وهو إبطال لمعنى الحاجة ، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدى الى خلاف المفروض ، والثانى كذلك والا لزم تساويهما فى رتبة الوجود(٢) فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر والثانى مؤثر ترجيحاً بلا مرجح وهو مما لا يسوغه العقل ، على أن علية أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة ، فتعين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه ، فيكون مسبوقاً بالعدم فى

(١) أى لأنه جمع بين النقيضين إذ معناه أنهما متساويان غير متساويين فى آن واحد فهو من القضايا التى قياساتها معها

(٢) أى إن وجوده قبل سببه يؤدى إلى الجمع بين النقيضين وهو كونه أى الممكن محتاجا فى وجوده إلى السبب غير محتاج اليه . وقوله : والثانى كذلك ظاهر فان وجود الشىء مع وجود سببه من غير سبق السبب على المسبب يقتضى أن ما فرض سببا لا يكون سببا وأن الممكن محتاج إلى السبب غير محتاج إليه وهو تناقض ظاهر ، وقوله : وإلا لزم تساويهما فى رتبة الوجود . مثاله أن يوجد الأب والابن اى يولدا فى وقت واحد ومن البديهى أن الشخصين اللذين يولدان فى وقت واحد لا يمكن أن يكون أحدهما أبا والآخر ابنا

مرتبة وجود السبب ، فيكون حادثاً إذ الحادث ما سبق وجوده بالعدم فكل ممكن حادث

الممكن لا يحتاج فى عدمه إلى سبب وجودى لأن العدم سلب ، والسلب لا يحتاج الى ايجاد بداهة ، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ما كان سبباً فى بقائه ، أما فى وجوده فيحتاج الى سبب وجودى ضرورة ، لأن العدم لا يكون مصدراً للوجود ، فالموجود إن حدث فانما يكون حدوثه بايجاد ، وذلك كله بديهى

كما يحتاج الممكن الى السبب فى وجوده ابتداء يحتاج اليه فى البقاء لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضى الوجود ، ولا يرجح لها الوجود عن العدم(1) الا للسبب الخارجى الوجودى ، فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من حيث هى ، فلا يكون للممكن حالة يقتضى فيها الوجود لذاته ، فيكون فى جميع أحواله محتاجاً الى مرجح الوجود عن العدم ، لا فرق بين الابتداء والبقاء

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الايجاد ومعطى الوجود وهو الذى يعبر عنه بالموجد وبالعلة الموجدة وبالعلة الفاعلة وبالفاعل الحقيقى ونحو ذلك من العبارات التى تختلف مبانيها ، ولا تتباين معانيها ، وقد يطلق السبب أحياناً على الشرط أو المعد الذى يهيئ الممكن لقبول الايجاد من موجده . وهو بهذا المعنى قد يحتاج اليه فى الابتداء

(1) هذا تعبير كلامى لبعضهم . والترجيح يتعدى بعلى

ويستغنى عنه فى البقاء ، وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه ، ومن هـذا القبيل وجود البنَّاء فانه شرط فى وجود البيت وقد يموت البناء ويبقى بناؤه . وليس البنَّاء واهب الوجود للبيت وانمـا حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار ارادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به

وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شئ وبين استفادته الوجود من شئ : فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم كما فى توقف الخطوة الثانية على الأولى ، فان الأولى ليست واهبة الوجود للثانيـة والا وجب وجودها معها ، مع أن الثانية لا توجد الا اذا انعدمت الأولى وأما استفادة الوجود فتقتضى سبق مالك للوجود يعطيه المستفيد منه وان يكون وجود المستفيد مستمداً من وجود الواهب لا يقوم إلى به فلا يستقل بنفسه دونه فى حال من الأحوال

الممكن موجود قطعاً

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن وأخرى تنعدم بعـد أن كانت كأشخاص النباتات والحيوانات : فهـذه الـكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة . لا سبيل الى الأول لأن المستحيل لا يطرأ عليـه الوجود ، ولا الى الثانى لأن الواجب له الوجود من ذاته[1] وما بالذات لايزول فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه كما سيجئ فى أحكام الواجب فهى ممكنة ، فالممكن موجود قطعاً

(١) قوله « له الوجود من ذاته » جملة هى خبر أن

وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة ، وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيه الوجود ، فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها إلى موجد لها ، فاما أن يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدم الشئ على نفسه ، وإما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشئ سبباً لنفسه ولما سبقه إن لم يكن الأول ، ولنفسه فقط إن فرض أول ، وبطلانه ظاهر ، فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات ، والموجود الذى ليس بممكن هو الواجب اذ ليس وراء الممكن الا المستحيل والواجب ، والمستحيل لا يوجد فيبقى الواجب ، فثبت أن الممكنات الموجودة موجداً واجب الوجود(١)

وأيضاً الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود ، فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الإمكان وماهيات الممكنات وهو باطل لما سبق فى أحكام الممكن من أنه لا شىء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود ، فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة

---

(١) هذه هى نتيجة تلك المقدمات كلها وملخصها أن المستحيل لا يوجد والممكن موجود بالفعل ويوجد دائما ووجوده يدل على وجود الواجب قطعا لأنه هو الذى يعطيه الوجود إذ لا وجود له من ذاته

أحكام الواجب

القدم والبقاء ونفي التركيب

من أحكام الواجب أن يكون قديما أزلياً لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثاً ، والحادث ما سبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقاً بعدم ، وكل ما سبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود وإلا لزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال ، فلو لم يكن الواجب قديماً لكان محتاجاً فى وجوده الى موجد غيره ، وقد سبق أن الواجب ماكان وجوده لذاته فلا يكون ما فرض واجباً واجباً وهوتناقض محال . ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه عدم وإلا لزم سلب ما هو للذات عنها وهو يعود الى سلب الشيء عن نفسه وهو محال بالبداهة

من أحكامه أن لا يكون مركباً إذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التى هى ذاته وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة ، فيكون وجود جملته محتاجاً الى وجود غيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته . ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفاً على الحكم بوجود أجزائه وقد قلنا إنه لذاته من حيث هى ذاته ولأنه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هى الواجبة دونه

نفى التركيب فى الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية[١] أو خارجية فلا يمكن للعقل أن يحاكى ذات الواجب بمركب فإن الأجزاء العقلية لا بد لها من منشأ انتزاع فى الخارج فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة فى الخارج وإلا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتباراً كاذب الصدق[٢] لا حقيقة.

كما لا يكون الواجب مركباً لا يكون قابلا للقسمة[٣] فى أحد الامتدادات الثلاث أى لا يكون له امتداد لأنه لو قبل القسمة لعاد بها الى غير وجوده الأول وصار الى وجودات متعددة وهى وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركباً وكلاهما محال كما سبق

(١) قوله حقيقة عقلية مبنى على القول بها على سبيل التوضيح وإلا فما يعرف عند علماء المعقول بالحقيقة العقلية لا ثبوت له وقد نفاها المؤلف فى الدرس وأثبت أنه ليس وراء الحقائق الخارجية الممكنة إلا إدراكها أى الصور التى ينتزعها الذهن من الوجود الخارجى، وبين فى درس المنطق بطلان مذهب أفلاطون فى الوجود العقلى ومذهب ارسطو فى كون الصور الذهنية هى حقائق هذه الموجودات الخارجية

(٢) قوله اعتبارا الخ خبر كان أى تصورا مخترعا لا يصدق على شىء فى الواقع. والعبارة عرفية منطقية، لا عربية فصيحة.

(٣) سئل المؤلف فى الدرس هل يصدق ذلك بالجوهر الفرد بالمعنى الذى يقولونه وهو أنه لا يقبل القسمة فعلا ولا عقلا ولا وهما؟ فقال إن الجوهر الفرد بهذا المعنى لا حقيقة له ونحن نحمل كلام من يقول بالجوهر الفرد على الجزء الذى لا ينقسم فعلا لشدة صغره وهذا ليس بمراد هنا قطعا اهـ والموضوع كله من نظريات الفلسفة القديمة الباطلة

الحيـــاة

معنى الوجود و إن كان بديهياً عند العقل ولـكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار . وكمال الوجود وقوته بكمال هـذا المعنى وقوته بالبداهة .

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة فى المعنى السابق ذكره و إلا كان الوجود لمرتبة سواها وقد فرض لها

ما يتجلى للنفس من مُثُل الوجود لا ينحصر . وأكمل مثال فى أى مراتبه ما كان مقروناً بالنظام والسكون على وجه ليس فيـه خلل ولا تشويش . فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجوداً مستمرًا وان فى النوع كان أدل على كمال المعنى الوجودى فى صاحب المثال

فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدراً لكل نظام كان ذلك عنواناً على أنها أكمل المراتب وأعلاها ، وأرفعها وأقواها

وجود الواجب هو مصـدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع ، فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها . فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا ، وكل ما تصوره العقل كمالا فى الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار

والظهور وأمكن أن يكون له وجب أن يثبت له[١] وكونه مصدراً للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا ، فيجب أن يكون ذلك ثابتاً له : فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له

فما يجب أن يكون له صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والإرادة ، وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة ، فان الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة[٢] وهي في أي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة ، فهي كمال وجودي ويمكن أن يتصف بها الواجب ، وكل كمال وجودي يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له ، فواجب الوجود حي وان باينت حياته حياة الممكنات فان ما هو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والارادة . ولو لم تثبت له هذه الصفة[٣] لكان في الممكنات ما هو أكمل منه وجوداً . وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف لو كان فاقداً للحياة يعطيها ؟ فالحياة له كما أنه مصدرها

---

(١) لشيخ الاسلام ابن تيمية رسالة بديعة في إثبات اتصافه تعالى بكل كمال وهي في الجزء الخامس من مجموعة رسائله المطبوعة في مطبعة المنار

(٢) دليل فيه إضمار تقديره وكل ما كان مصدر النظام الخ فهو كمال وجودي فالحياة كمال وجودي

(٣) دليل ثان على ثبوت الحياة لواجب الوجود ، وقوله بعده « والواجب هو واهب الوجود » دليل ثالث :

العلم

ومما يجب له صفة العلم . ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة أى مصدر ذلك الانكشاف منه[1] لأن العلم من الصفات الوجودية التى تعد كمالا فى الوجود ويمكن[2] أن تكون للواجب ، وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له ، فواجب الوجود عالم

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال فى الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم ، فلو لم يكن الواجب عالماً لكان فى الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا . ثم هو واهب العلم فى عالم الامكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده[3]

علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علوّ وجوده عن الوجودات[4] فلا يتصور فى العلوم ما هو أعلى منه ، فيكون محيطا

---

(١) بيان لمعنى العلم فى اللغة وسنذكر معنى علمه تعالى فى حاشية صفحة ٤٥ (٢) كتب المصنف فى حاشية نسخة الدرس هنا أى بالامكان العام (٣) وكتب هنا : العلم كمال والناقص الفاقد الكمال لايمكنه أن يهب كمالا بالضرورة ، وأما الصفات التى لاتعد كمالا ولا نقصا وهى من خواص الماهيات كالحرارة فليست من هذا القبيل « فيمكن » هبتها مع فقدها اه (٤) هكذا اختلفت تعدية العلوم بعلى وعن والعبارة فى معنى قول السلف بعلوه تعالى فوق جملة خلقه بائنا منهم (والله من ورائهم محيط)

بكل ما يمكن علمه ، وإلا تصور العقل علماً أشمل ، وهو إنما يكون لوجود أكمل ، وهو محال

ما هو لازم لوجود الواجب يغنى بغناه[(١)] ويبقى ببقائه ، وعلم الواجب من لوازم وجوده ، فلا يفتقر إلى شىء ما وراء ذاته ، فهو أزلى أبدى غنى عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر ، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة

ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم وإلا لم يكن علماً

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده فى نظام الممكنات من الإحكام والاتقان ، ووضع كل شىء فى موضعه ، وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه فى وجوده وبقائه ، وذلك ظاهر لجلى النظر بما يشاهد فى الأعيان كبيرها وصغيرها علويها وسلفيها ، فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها ، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذى قدر لها ، وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره ، وغير ذلك مما فصل فى علوم الهيئة الفلكية ـ كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره

---

(١) غنى بالشىء : اكتفى به واستغنى به عن غيره . وفى الطبعة الخامسة بفنائه بالفاء وهو غلط بالطبع وباطل بالعقل والشرع

اعتبر بما تراه فى جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها ، وإيتائها ما تحتاج إليه فى تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ووضع ذلك فى مواضعه من أبدانها ، وإيداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل الى تناول ما يناسبه من الغـذاء دون ما لا يلائمه . فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبـة البطيخ فى أرض واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنمى بعناية واحـدة ، ولـكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزُّعاق ، وهـذه تتناول ما يغذو حلو المذاق ، وإرشاد الحساس منها الى اسـتعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء وسَوق كل قوة من قواه إلى ما قدرت له . فهو الذى يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته ـ متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحى المستقل فى عمله ـ الى الأيدى والأرجل والأعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ، ويقيه من العوادى عليـه . وحاجته الى المعدة والـكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التى لا غنى عنها فى النمو والبقاء الى الأجل المحدود للشخص أو للنوع

هو الذى يعلم حالة الجروة من الـكلات مثلا وأنها متى كبرت تلد أجراء متعددة فيمنحها أطباء[1] كثيرة وغير ذلك ممـا لا يستطاع

(١) الأجراء : جمع جرو ، والأطباء جمع طبي بالكسر : وهى حلمات الضرع

إحصاؤه . وقد فصل الكثير منه فى كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعى وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه على أن الباحثين فى كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الأسرار لم يزالوا فى أول البحث

هـذا الصنيع الذى انما تتفاضل العقول فى فهم أسراره والوقوف على دقائق حكمه ، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شىء ؟ الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ؟ هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة[1] أن يكون ينبوعاً لهذا النظام ؟ وواضعاً لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الأكوان عظيمها وحقيرها ؟ كلا بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم

(١) الصدفة كلمة استعملها المولدون ولم تعرف عن العرب وقد استبدل بها المؤلف فى تصحيح خطبة شرحه لنهج البلاغة لفظ المصادفة وتركها هنا سهوا أو مراده المسمى فى عرف الناس بالصدفة

الارادة

مما يجب لواجب الوجود الارادة . وهى صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة[1]

بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم وأن ما يوجد من الممكن لابد أن يكون على وفق علمه ثبت بالضرورة أنه مريد لأنه انما يفعل على حسب علمه . ثم ان كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة وله وقت ومكان محدودان . وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ولا معنى للارادة الا هذا

أما ما يعرف من معنى الارادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصد وأن يرجع عنه فذلك محال فى جانب الواجب فان هذا المعنى من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ وهى من توابع النقص فى العلم . فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك

---

(١) يعنى الوجوه المتقابلة التى لا تجتمع كما يعلم مما يأتى

القدرة

ومما يجب له القدرة وهى صفة بها الايجاد والاعدام . ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه و إرادته فلا ريب يكون قادراً بالبداهة لأن فعل العالم المريد فيما علم وأراد إنما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة الا هذا السلطان

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار إذ لا معنى له الا اصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار ، ليس من أفعاله ولا من تصرفه فى خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا ارادة . وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد فيأتيه تنزهاً عن اللائمة . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى انما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذى هو أكمل الوجودات وأرفعها . فالكمال فى الكون انما هو تابع لكمال المكون . واتقان الابداع انما هو

مظهر لسمو مرتبة المبدع . وبهـذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والارادة المطلقة فصدر ويصدر على هــــذا النمط الرفيع (٢٣ : ١١٥ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنــكم الينا لاترجعون ؟) وهذا هو معنى قولهم ان أفعاله لا تعلل بالأغراض ، ولـكنها تنزه عن العبث ، ويستحيل أن تخلو من الحـكم ، وان خفى شىء من حكمتها عن الأنظار[١]

الوحدة

ومما يجب له صفة الوحدة ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلا : أما الوحدة الذاتية فقـد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته خارجاً وعقلا . وأما الوحـدة فى الصفة أى أنه لا يساويه فى صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس فى الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى مرتبـة الوجود فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات . وأما الوحـدة فى الوجود وفى الفعل ونعنى بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من ايجـاد المكنات فهى ثابتة

(١) قد تخفى حكمة الشىء عن البشر زمنا طويلا ثم تظهر كما ثبت كثيرا وصفة الاختيار تبطل قول القائلين بأن العالم كالآلة الميكانيكية

لأنه لو تعدد واجب الوجود لـكان لـكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة و إلا لم يتحصل معنى التعدد . وكلـا اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتـة للذوات المتعينة . لأن الصفة انما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبداهة . فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة إذ يكون لـكل واحدة منها علم و إرادة يباينان علم الأخرى و إرادتها و يكون لـكل واحدة عـلم و إرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها

هذا التخالف ذاتى لأن علم الواجب و إرادته لا زمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق ، وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته فيـكون فعل كل صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية ، فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم و إراداتهم ، وهو خلاف يستحيل معه الوفاق ، وكل واحـد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الايجاد فى عامة الممكنات فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه وإرادته ، ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى ، فتتضارب أفعالهم حسب التضارب فى علومهم و إراداتهم، فيفسد نظام الـكون بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل

وجود ممكن من الممكنان ، لأن وجود كل ممكن لا بد أن يتعلق به الايجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة ، فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال ــ فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا[1] لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه واحد فى ذاته وصفاته ، لا شريك له فى وجوده ولا فى أفعاله

(١) تقرير لكون قوله تعالى (٢١ : ٢٢ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) برهانا قطعيا لا دليلا إقناعيا كما زعم من لم يفهم الآية والمراد بقوله فيهما السموات والأرض المذكورتان فى آية سابقة قريبة

وهذا الوجه من التوحيد قد ضل فيه بعض البشر فزعموا أن للخير والنور إلها وللشر والظلمة إلها . وقال آخرون بعدة أرباب تعبد . وما قبله بحث فلسفى فى الوحدة قلما يحتاج اليه أحد فى هـذا العصر ولا سيما نفى التركيب فى الذات إلا إذا عد منه التثليث عند النصارى و بعض الهندوس وذلك غير ظاهر . وسكت هنا عن التوحيد الأعظم الذى تدل عليه كلمة لا إله إلا الله وهو عبادة الله وحده وعدم عبادة غيره ، لأن هـذا بحث كلامى فلسفى ولكنه تكلم عليه فى مواضع أخرى كالكلام فى أفعال العباد وفى الكلام عما جاء به الاسلام بعد بحث الرسالة العامة

الصفات السمعية

التى يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التى يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هى ما أرشد إليه البرهان وجاءت الشريعة الاسلامية وما تقدمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة إليه بلسان نبينا محمد ﷺ ولسان من سبقه من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل اذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ، ولكن لا يهتدى إليه النظر وحده[1] ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعاً لما قرره الشرع وتصديقاً لما أخبر به

فمن تلك الصفات صفة الكلام فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ونطق القرآن بأنه كلام الله فمصدر الكلام المسموع عنه

---

(١) فيه أن النظر العقلى قد اهتدى اليه و بناه على القاعدة التى أشار اليها فى الكلام على صفة الحياة وهى أن كل كمال وجودى محض يجب أن يتصف به واجب الوجود ، وفصله ابن تيمية برسالة خاصة

سبحانه لا بد أن يكون شأناً من شئونه قديماً بقدمه(١)

(١) إن الله تعالى جعل للناس طرقا عامة كالحواس والعقل يكسبون بها العلم كسبا فينالون منه بحسب استعدادهم واجتهادهم ، واختص من شاء من المصطفين بعلم ينزله على قلوبهم ويفيضه على أرواحهم بلا كسب منهم فالعلم هو القوة أو الصفة التى تنكشف بها المعلومات للنفس بكسب أو بغير كسب . وفيها قوة أخرى تتصرف بها فى المعلومات وتصورها بصور قابلة لاعلام قابل العلم بها ، فبها يتمكن الانسان من إفادة غيره ماشاء من علمه وهى صفة الكلام ، فما كان منه فى النفس يسمى كلاما نفسيا ويعبر عنه بالقول والكلام والحديث فيقول قلت فى نفسى كذا وحدثتنى نفسى وقال عمر يوم السقيفة : زورت فى نفسى كلاما ـ وما تحصل به الافادة والاعلام بالفعل من قول أو كتابة أو غيرها ويوجه إلى من يراد إعلامه به فيعلمه يسمى كلاما لفظيا ، وقد استعير لفظ العلم الذى يستعمله البشر فى أنفسهم للعلم الالهى المحيط بكل شىء ، واستعير لفظ الكلام للشأن الالهى الذى به يوحى الله إلى ملائكته ورسله ما شاء من العلم ويكلم من شاء وحيا من وراء حجاب ، فقيل إن لله كلاما هو صفة له أى شأن من شئونه هو مصدر الوحى وإفادة العلم للانبياء والملائكة ، وسمى ما يوحيه اليهم كلاما أيضا . وليس فى اللغة لفظ يعبر به عن ذلك يقوم مقام هذا اللفظ المستعمل فى كلام الناس مع العلم بتنزيه كلام الله النفسى عن مشابهة كلام الناس كعلمه وعلمهم وقدرته وقدرتهم ، فالكلام النفسى صورة للعلم الذاتى فى النفس كما أن العلم صورة للمعلوم فيها . ولذلك كان كلامه تعالى لا نهاية له كعلمه ، فكلام الله صفة ذاتية له تتعلق بكل ما فى علمه وبكشف ماشاء من علمه لمن شاء من خلقه وهو التكليم . كما أن علمه صفة ذاتية له تتعلق بكل شىء تعلق انكشاف وادراك من غير سبق خفاء ، فالكلام كمال وجودى محض لو لم يكن الخالق متصفا به لكان ناقصا (سبحانه) بفقده فى الازل له ، ولكان غيره من =

ومما ثبت له بالنقل صفة البصر وهى ما به تنكشف المبصرات

= الموجودات كالانسان أكمل منه على ما سبق بيانه فى صفة الحياة تعالى الله عن ذلك . فالكلام هو الوصف الفاصل بين الانسان والحيوان وقد احتج الله على بطلان ألوهية عجل بنى اسرائيل بقوله (أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا * ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) وانما الاله الحق هو الذى يملك هدايتهم بكلامه وضرهم ونفعهم بقدرته ، ولو خلق الله تعالى فى نفس الملك أو النبى علما بما أراد اعلامه به لم يكن صادرا عن كلامه النفسى ومرآة له لما صح أن يسمى هذا العلم كلاما لله تعالى ، كما أن سائر علوم الخلق الضرورية التى لا كسب لهم فيها من خلقه تعالى ولا تسمى كلاما له . وكذلك الكسبية بالأولى

هذا وان لايحاء كلامه تعالى الى الملائكة صورة روحية غير الصورة التى يوحيها الملك للرسول من البشر ، والرسول يبلغها للناس بصورة اخرى هى كلامهم اللفظى ، والمعنى للكل الذى هو العلم الذى أراد الله تعالى اظهارهم عليه واحد لا يتغير باختلاف صوره ولا يصح أن يعزى الى غيره فالشاعر الذى علم ان كل شىء ما خلا الله باطل (لأنه لا وجود له ولا بقاء بذاته لذاته) وان كل نعيم فى الدنيا زائل ، وتمثل له هذا المعنى بقوله:

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

قد نطق بهذا البيت بلفظه ، بعد أن تمثل فى نفسه ، ثم تناقله عنه الناس بألسنتهم وخطوطهم قرنا بعد قرن ، وكلهم يعزونه اليه وانه من كلامه ، وأن النطق به وكتابته الآن لا ينفى أنه كلام له قيل منذ بضعة عشر قرنا ـ فهذا أوضح مثال لكون القرآن كلام الله الذى أوحاه الى محمد رسوله (ص) صادرا عن كلامه النفسى ، وأن حدوث الوحى به قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة وتلاوته بالألسنة وكتابته وطبعه فى المصاحف قرنا بعد قرن لا ينافى كونه هو كلامه وأنه قديم =

وصفة السمع وهى ما به تنكشف المسموعات ، فهو السميع البصير .

= بقدمه ، على أن السلف لم يقولوا انه قديم لأن نص الشارع لم يرد به ، وقد أغلظوا النكير على من قالوا انه مخلوق وحادث بشبهة حدوث ايحائه وتنزيله وتلاوته ، لأن الحامل لهم عليه انكار صفات الله تعالى جملة وتفصيلا بشبهة استلزام اثباتها لتعدد القدماء ، وهى نظرية فلسفية مخترعة باطلة وضعوها وحكموها فى صفات الله تعالى وكلامه المنزل غلوا فى التنزية انتهى بهم الى جعله عز وجل ماهية خيالية سلبية فاقدة لكل صفات الوجود وكذا نظرية امتناع قيام الحادث بالقديم ، وانما التنزيه الصحيح أنه تعالى موجود متصف بجميع صفات الكمال الوجودية ومنها الكلام والتكليم ، بغير تعطيل ولا تمثيل وقد اهتدى البشر إلى بيان ما فى أنفسهم من الكلام لمن يريدون إعلامه بمعناه بطريقة سريعة خفية يكلم بها المرء غيره وهو يبعد عنه ألوفا من الأميال بلا صوت ، وذلك مايعرف بالتلغراف السلكى واللاسلكى ، ومايؤدى به يسمى كلاما أيضا ، فهذا أظهر مثال يضرب للوحى ، وتنزيه كلام الله عن مشابهة كلام الخلق ، ثم اهتدوا الى اختراع آلة أخرى تنقل الأصوات والكلام من قطر الى قطر وان بعدت المسافات سموها الراديو وسميناها المذياع

وقد حذفنا من هذا الموضع نحو صفحة من الرسالة فى مسألة الخلاف فى خلق القرآن عملا بأمر المؤلف إذ كتب بخطه فى طرة نسخته ما نصه: (فى الطبعة الثانية يحذف القول فى خلق القرآن) و بين لنا السبب فى ذلك فى الدرس فقال إنه التزم فى الرسالة مذهب السلف وهذه المسألة من البدع التى ليست من مذهبهم وكان الذى ذكره بذلك الشيخ محمد محمود الشنقيطى (رح) فأذعن وذكر ذلك فى الدرس وقد نوهنا بذلك فى مقالة للمنار عنوانها (سجايا العلماء) وما شرحناه تصوير للحقيقة المثبتة لمذهب السلف الداحضة لبدعة المعتزلة بما يقبله العقل والوجدان السليمان ولله الحمد

لـكن علينا أن نعتقد أن هـذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة مما هو معروف لنا(١)

كلام فى الصفات اجمالا

أبتدىء الـكلام فيما أقصد بذكر حديث ان لم يصح فـكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله ﷺ « تفـكروا فى خلق الله ولا تفـكروا فى ذاته فتهلـكوا »(٢)

(١) وكذلك علمه تعالى ليس بآلة الدماغ ولا بوجدان القلب

(٢) الحـديث ورد بألفاظ يتفق معناها قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الاحيـاء رواه أبو نعيم فى الحلية بالمرفوع منـه باسناد ضعيف ورواه الاصبهـانى فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ، ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال هـذا اسناد فيه نظر . قلت فيـه الوازع بن نافع متروك اه زاد الزبيدى فى الشرح : قلت حـديث ابن عمر لفظه « تفـكروا فى آلاء الله ولا تفـكروا فى الله » هكذا رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب التفكر وأبو الشيخ فى العظمة والطبرانى فى الأوسـط وابن عدى وابن مردويه والبيهقى وضعفه والاصبهـانى وأبو نصر فى الابانة وقال غريب ورواه أبو الشيخ من حـديث ابن عباس « تفـكروا فى الخلق ولا تفـكروا فى الخالق فانـكم لا تقدرون قدره» ورواه ابن النجار والرافعى من حديث أبى هريرة « تفكروا فى خلق الله ولا تفـكروا فى الله » الخ وتعدد هـذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوى فى المقاصد اه

اذا قدرنا عقل البشر قدره وجــدنا غاية ما ينتهى الى كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الـكائنات التى تقع تحت الادراك الانسانى حسا كان أو وجـدانا أو تعقلا ، ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها . وتحصيل كليات لأنواعها ، والاحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها . وأما الوصول الى كنه[1] حقيقة مّا فمما لا تبلغه قوته . لأن اكتناه المركبات[2] انمــا هو باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهى الى البسيط الصرف وهو لا سبيل الى اكتناهه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره :

خذ أظهر الأشياء وأجلاها كالضوء ، قرر الناظرون فيه له أحكاماً كثيرة فصلوها فى علم خاص به ، ولـكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو

---

(١) كنه الشيء جوهره وحقيقته وغايته ومعرفة الـكنه هى معرفة الاحاطة التى ليس وراءها غاية يبحث عنها

(٢) الاكتناه معرفة الـكنه ، مثال ذلك اكتناه المـاء هو معرفة ما تركب منــه وهو عنصران بسيطان بحسب ما وصل اليه عـلم من اكتشف هـــذا التركيب يسمونهما الاكسجين والادروجين ، فتقول الماء سائل شفاف مركب من الاكسجين والادروجين على نسبة معينة . فيشبه هذا أو يقرب أن يكون اكتناها لهذا المركب لمن اكتنه جزأيه، ولـكن اكتناه البسيط كالادروجين مما لا سبيل اليه كما قال المصنف

ولا أن يكتنه معنى الاضاءة نفسه ، وإنما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان . وعلى هذا القياس

ثم ان الله لم يجعل للانسان حاجة تدعو الى اكتناه شيء من الكائنات ، وانما حاجته الى معرفة العوارض والخواص ، ولذة عقله إن كان سليما انما هي تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب ، فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت وصرف للقوة الى غير ما سيقت اليه

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء اليه وهي نفسه : أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر ؟ هل هي قبل الجسم أو بعده ؟ هل هي فيه أو مجردة عنه ؟ كل هذه صفات لم يصل العقل الى اثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه ، وإنما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حي له شعور وارادة ، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع الى تلك العوارض التي وصل اليها ببديهته أما كنه شيء من ذلك بل وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به

هذا حال العقل الانساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحط عنه ، بل كذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر ،

وارتباطه بالحركة والنطق ، فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الأعلى ؟ ماذا يكون دهشه بل انقطاعه اذا وجه نظره الى ما لا يتناهى من الوجود الأزلى الأبدى ؟

النظر فى الخلق يهدى بالضرورة الى المنافع الدنيوية ويضىء للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره ، وعليها تجلت أنواره ، والى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هى عليه من النظام ، وتخالف الأنظار فى الكون انما هو من تصارع الحق والباطل ولابد أن يظفر الحق و يعلو على الباطل بتعاون الأفكار أو صولة القوى منها على الضعيف

وأما الفكر فى ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشرى لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركب فى ذاته ، وتطاول الى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة : عبث لأنه سعى الى ما لا يدرك ، ومهلكة لأنه يؤدى الى الخبط فى الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده ، وحصر لما لا يصح حصره

لا ريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتى فى الذات من حيث هى يأتى فيها مع صفاتها ، فالنهى واستحالة الوصول الى الاكتناه شاملان لها فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها ،

وأما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل اليه ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وماسبقه من الكتب الا بتوجيه النظر الى المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية وأما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها

فالذى يوجبه علينا الايمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات ، أزلى أبدى حى عالم مريد قادر ، متفرد فى وجوب وجوده ، وفى كمال صفاته ، وفى صنع خلقه ، وأنه متكلم سميع بصير ، وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه

أما كون الصفات زائدة على الذات ، وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية ، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ، ونحو ذلك من الشئون التى اختلف فيها النظار ، وتفرقت فيها المذاهب ، فمما لا يجوز الخوض فيه ، إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه ، والاستدلال على شيء منه بالألفاظ الواردة ضعف فى العقل ، وتغرير بالشرع ، لأن استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى ـ وإنما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع . فما علينا الا الوقوف عند ما تبلغه عقولنا ، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا من الخائضين

أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وارادته كما سبق تقريره ، وكل ما صدر عن علم وارادة فهو عن الاختيار ، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته ، فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته ، فجميع صفات الأفعال من خلق ورزق و إعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما يثبت له تعالى بالامكان الخاص(١) فلا يطوفن بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل عن علم وارادة أن يتوهم أن شيئاً من أفعاله واجب عنه لذاته كما هو الشأن فى لوازم الماهيات أو فى اتصاف الواجب بصفاته مثلا ـ فان ذلك هو التناقض البديهى الاستحالة كما سبق الاشارة اليه.

بقيت علينا جولة نظر فى تلك المقالات الحمقى التى اختبط فيها القوم اختباط اخوة تفرقت بهم الطرق فى السير الى مقصد واحد ، ثم التقوا فى غسق الليل فصاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر ، فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده ، فاستحرَّ بينهم القتال

(١) الامكان الخاص عبارة عن كون كل من إيجاب ذلك وسلبه غير ضرورى أى لا يمتنع فعله عقلا ولا يتحتم

ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد الى من بقى وهم الناجون ، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على بلوغ ما أملوا ، ولوافتهم الغاية اخواناً بنور الحق مهتدين

نريد تلك المقالات المضطربة فى أنه يجب على الله رعاية المصلحة فى أفعاله وتحقيق وعيده ، فيمن تعدى حدوده من عبيده ، وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأغراض ، فقد بالغ قوم فى الايجاب حتى ظن الناظر فى مزاعمهم أنهم عدوه واحداً من المكلفين يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات . تعالى عن ذلك علواً كبيراً . وغلا آخرون فى نفى التعليل عن أفعاله حتى خيل للممعن فى مقالاتهم أنهم لا يرضونه الا قلباً يبرم اليوم مانقضه بالأمس . ويفعل غداً ما أخبر بنقيضه اليوم . أو غافلا لايشعر بما يستتبعه عمله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) وهو أحكم الحاكمين . وأصدق القائلين . جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة . وصرح الغلاة والمقصرون جميعاً بأنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله . والكذب

فى أقواله ، ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالألفاظ ، و يتمارون فى الأوضاع ، ولا يدرى الى أى غاية يقصدون ؟ فلنأخذ ما اتفقوا عليه ، ولنرد الى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاماً أو يدفع فساداً خاصاً كان أو عاماً لو كشف للعقل من أى وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثاً ولعباً ، ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع إلى هذا حاكمناه الى أوضاع اللغة و بداهة العقل ـ لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ولا يتمثل عند العقل بمثالها الا إذا كان ما يتبع العمل مراداً لفاعله بالفعل ، والا لعد النائم حكيما فيما لو صدرت منه حركة فى نومه قتلت عقرباً كادت تلسع طفلا ، أو دفعت صبياً عن حفرة كاد يسقط فيها ، بل لو سم بالحكمة كثير من العجماوات اذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة ، والبداهة تأباه

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء « أن أفعال العاقل تصان عن العبث » ولا يريدون من العاقل الا العالم بما يصدر عنه بإرادته ، و يريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر الا لأمر يترتب عليها يكون غاية لها ، وان كان هذا فى العاقل الحادث فما ظنك بموجد كل عقل ، ومنتهى الكمال فى العلم والحكم ؟ هذه كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد

صنع الله الذى أتقن كل شىء[1] وأحسن خلقه[2] مشحون بضروب الحكم ، ففيه ما قامت به السموات والأرض وما بينهما وحفظ به نظام الكون بأسره ، وما صانه عن الفساد الذى يفضى به الى العدم ، وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته ، خصوصاً ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ، ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه

فهذه الحكم التى نعرفها الآن بوضع كل شىء فى موضعه وإيتاء كل محتاج ماله إليه الحاجة ، إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا[3] لا يمكن القول بالثانى وإلا لكان قولا بقصور العلم ان لم تكن معلومة ، أو بالغفلة ان لم تكن مرادة . وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شىء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن إرادته ، فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ، ولا معنى لهذا الا ارادته للحكمة من حيث هى تابعة للفعل ، ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به ، فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة ، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير

---

(١) مقتبس من سورة النمل ٣٧ : ٨٨ (٢) من (الم) السجدة ٣٢ : ٧ (٣) الظاهر التعبير بأولا

مرادة ، اذ لو صح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق

فوجوب الحكمة فى أفعاله تابع لوجوب الكمال فى علمه وارادته وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين . وهكذا يقال فى وجوب تحقق ما أوعد ووعد به ، فانه تابع لكمال علمه وارادته وصدقه وهو أصدق القائلين[1] وما جاء فى الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب ارجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع على ما هدت إليه البديهيات السابق ايرادها وعلى ما يليق بكمال الله و بالغ حكمته ، وجليل عظمته . والأصل الذى يرجع اليه كل وارد فى هذا الباب قوله تعالى (٢١ : ١٦ وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين (١٧) لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين (١٨) بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون)

وقوله « لاتخذناه من لدنا » أى لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق لا يشوبه نقص وهو محال . و « ان » فى قوله

(١) كتب المصنف فى طرة نسخته هنا ما نصه : ولا يقال إن غاية حكمته الوجوب عليه ، لأنه هو جاعل الغاية وذو الغاية وكون الغاية غاية لأنه المبدع الذى لا يتأثر بشىء ولا يحكم عليه أمر ما أراده

« ان كنا فاعلين » نافيه وهو نتيجة القياس السابق(١)

بقى أن الناظرين فى هذه الحقائق ينقسمون الى قسمين : فنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته ـ فهذا القسم يسمى المعانى بأسمائها ولا يبالى جوز شرع إطلاقها فى جانب الله أم لم يجوز ، فيسمى الحكمة غاية وغرضاً وعلة غائية ورعاية للمصلحة ، وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عناناً يرده عن اطلاق اسم متى صح عنده معناه وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشئون لإله عظيم ، يعبد بالتحميد والتعظيم ، ويجب الاحتياط فى تنزيهه ولو بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصاً فى جانبه ، فيتبرأ من تلك الألفاظ مفردها ومركبها ، فإن الوجوب عليه يوهم التكليف والالزام ، و بعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالاغيار ، ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر و إجالة الفكر وهما من لوازم النقص فى العلم ، والغاية والعلة الغائية والغرض توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل الى نهايته وفيها ما فى سوابقها . ولكن الله أكبر ، هل يصح أن تكون سعة المجال ، أو التعفف فى المقال ، سبباً فى التفرقة بين المؤمنين وتماريهم فى الجدال ، حتى ينتهى بهم التفرق الى ما صاروا اليه من سوء الحال ؟

(١) القياس هو قوله فى صحيفة ٥٦ فهذه الحكم التى نعرفها الآن الخ

افعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ، ثم يصدرها بقدرة مّا فيه . ويعد إنكار شيء من ذلك مساوياً لانكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل

كما يشهد بذلك[1] فى نفسه يشهده أيضاً فى بنى نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد ارضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى الى منجاة فسقط فى مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه ان كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته أول مرة مرشداً له فى الأخرى، فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوسائل أحكم ، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهى ان كان سبب الاخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى مطلبه ، لوجدانه من نفسه أنه الفاعل فى حرمانه . فينبرى لمناضلته ، وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك ان لم يكن لتقصيره أو

---

(١) الظاهر حذف الباء فانه من شهود الشيء لا الشهادة به كما فى سابق القول ولاحقه

لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مضير عمله ، كأن هب ريح فأغرق[١] بضاعته ، أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته . أو علق أمله بمعين فمات أو بذى منصب فعزل . يتجه من ذلك الى أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطاناً لا تصل اليه سلطته ، فان كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحد يصرفه على مقتضى علمه وارادته ، خشع وخضع ، ورد الأمر اليه فيما لقى ، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى ، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات ، يشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية ـ عقلية كانت أو جسمانية قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله ، وقد عرّف القوم شكر الله على نعمه فقالوا هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه الى ما خلق لأجله .

على هذا قامت الشرائع ، وبه استقامت التكاليف . ومن أنكر شيئاً منه قد أنكر مكان الإيمان من نفسه ، وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيه

(١) الريح مؤنثة وقد ذهل المؤلف عن تصحيحه ولم يتركه لأن التأنيث مجازى

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار ، فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه ، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين ، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث ابتدءوا ، وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا ، فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلاله المطلق وهو غرور ظاهر ، ومنهم من قال بالجبر وصرح به ، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه ، وهو هدم للشريعة ، ومحو للتكاليف ، وإبطال لحكم العقل البديهى وهو عماد الايمان

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدى إلى الإشراك بالله ـ وهو الظلم العظيم ـ دعوى من لم يلتفت إلى معنى الإشراك على ما جاء به الكتاب والسنة ، فالاشراك اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة ، وأن لشىء من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين ، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر العبد عليه ـ كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش ، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى

هدانا الله إليها ، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله لنا

هـذا هو الشرك الذى كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم فجاءت الشريعة الاسلاميـة بمحوه ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الـكونية الى الله وحـده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمـال البشرية (الأول) أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ، ما هو وسـيلة لسعادته (والثانى) أن قدرة الله هى مرجع لجميع الـكائنات ، وأن من آثارها ما يحول بين العبـد و بين انفاذ ما يريده ، وأن لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبـد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه

جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه الى إتمام عمـله بعد احكام البصيرة فيه ، وتكليفه أن يرفع همته الى استمداد العون منه وحـده بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد فى تصحيح الفـكر وإجادة العمل . ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب الى غير ذلك

وهذا الذى قررناه قد اهتدى إليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم ، وعول عليه من متأخرى أهل النظر إمام الحرمين الجوينى (١) رحمه الله وإن أنـكر عليه بعض من لم يفهمه

(١) إمام الحرمين لقب أبى المعالى عبد الملك بن أبى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى الذى نصر مذهب السلف بالصراحة التامة

أكرر القول بأن الايمان بوحدانية الله لا يقتضى من المكلف الا اعتقاده أن الله صرفه فى قواه : فهو كاسب لإيمانه ولما كلفه الله به من بقية الأعمال ، واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ، ولها وحدها السلطان الأعلى فى إتمام مراد العبد بإزالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته

وأما التطلع إلى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الايمان كما بينا ، وانما هو من شَرَه العقول فى طلب رفع الأستار عن الأسرار . ولا أنكر أن قوماً قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك الى ما اطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ولكن قليل ماهم ـ على أن ذلك نور يقذفه الله فى قلب من شاء ، ويخص به أهل الولاية والصفاء . وكثر ما ضل قوم وأضلوا وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم(١)

لو شئت لقربت البعيد فقلت ان من بالغ الحكم فى الكون أن تتنوع الأنواع على ما هى عليه فى العيان ولا يكون النوع ممتازاً عن غيره حتى تلزمه خواصه ، وكذا الحال فى تميز الأشخاص ، فواهب

(١) هم جهلة أدعياء الولاية بالتصوف التقليدى الذين أفسدوا عقائد العامة بالجبر والخرافات

الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ما هي عليه ، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه ، ومن تلك الأنواع الإنسان ، ومن مميزاته ـ حتى يكون غير سائر الحيوانات ـ أن يكون مفكراً مختارا فى عمله على مقتضى فكره ، فوجوده الموهوب مستتبع لميزاته هـذه ، ولو سلب شيء منها لـكان إما ملـكا أو حيواناً آخر . والفرض أنه الإنسان ، فهبة الوجود له لا شيء فيهـا من القهر على العمل . ثم علم الواجب محيط بما يقع من الإنسان بإرادته وبأن عمل كذا يصدر فى وقت كذا وهو خير يثاب عليه ، وأن عملاً آخر شر يعاقب عليـه عقاب الشر . والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة عن الـكسب والاختيار فلا شيء فى العلم بسالب للتخيير فى الـكسب ، وكون ما فى العلم يقع لا محالة إنما جاء من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل

ولنا فى علومنا الـكونية أقرب الأمثال : شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لأميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة لـكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر فى اختياره لا بالمنع ولا بالإلزام . فانـكشاف الواقع للعالم لا يصح فى نظر العقل ملزماً ولا مانعاً . وإنمـا يريبك الوهم تغيير العبارات وتشعب الألفاظ

ولو شئت لزدت فى بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية ، لكن يمنعنى عن الاطالة فيه عدم الحاجة اليه فى صحة الايمان ، وتقاصر عقول العامة عن إدراك الأمر فى ذاته مهما بالغ المعبر فى الايضاح عنه ، والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد ، فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه إلا موافقاً لما يعتقدون،فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا فى مقاومته ، وان أدى ذلك إلى جحد العقل برمته ، فأكثرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد ، فان صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم « ويل للخابط ، ذلك قلب لسنة الله فى خلقه ، وتحريف لهديه فى شرعه » عرتهم هزة من الجزع ، ثم عادوا الى السكون ، محتجين بأن هذا هو المألوف ، وما أقمنا إلا على معروف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

حسن الافعال وقبحها

الأفعال الانسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا ، وما تنفعل به نفوسنا عند الاحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا ، أو حضورها فى مخيلاتنا — وذلك بديهى لا يحتاج إلى دليل

نجد فى أنفسنا بالضرورة تميزاً بين الجميل من الأشياء والقبيح منها ، فان اختلفت مشارب الرجال فى فهم جمال النساء ، أو مشارب النساء فى معنى جمال الرجال ، فلم يختلف أحد فى جمال ألوان الأزهار وتنضيد أوراق النباتات والأشجار ، خصوصاً إذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض ـ ولا فى قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائها وانقطاع البعض الآخر على غير نظام ، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو اعجاب ، ومن القبيح اشمئزاز أو جزع ، وكما يقع هذا التميز فى المبصرات ، يقع فى غيرها من المسموعات والملموسات

والمذوقات والمشمومات ، كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم بإحدى تلك الحواس

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح فى الأشياء ، ولكن لا يخالفنا أحد فى أن من خواص الانسان بل و بعض الحيوان التمييز بينهما . وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها و به ارتقى العمران فى أطواره الى الحد الذى نراه عليه الآن ، وان اختلفت الأذواق ـ فنى الأشياء جمال وقبح

هذا فى المحسوسات واضح كما سبق ، ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة فى الوضوح ما يلم به العقل من الموجودات المعقوله . وان اختلف اعتبار الجمال فيها . فالكمال فى المعقولات كالوجود الواجب والأرواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه وتنبهر له بصائر لاحظيه . وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية وان اختلف أثر الشعور ببعض أطواره فى الوجدان . عن أثر الاحساس بالقبيح فى المحسوسات ، وهل فى الناس من ينكر قبح النقص فى العقل ، والسقوط فى الهمة ، وضعف العزيمة ؟ ويكفى أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون فى اخفائها ، و يفخرون أحياناً بأنهم متصفون بأضدادها

وقد يجمل القبيح بجمال أثره ، ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به ، فالمر قبيح مستبشع ، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر ، لكن أثر المر فى معالجة المرض ، وعدل الدميم فى رعيته أو احسانه اليك فى خاصة نفسك ، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته ، فان جمال الأثر يلقى على صاحبه أشعة من بهائه فلا يشعر الوجدان منه إلا بالجميل ، ومثل ذلك يقال فى قبح الحلو اذا أضر ، واشمئزاز النفس من الجميل اذا ظلم وأصر

هل يمكن لعاقل أن لا يقول فى الأفعال الاختيارية ، كما قال فى الموجودات الكونية ، مع أنها نوع منها ، وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية اما بنفسها واما بأثرها ، وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات ؟ كلا بل هى قسم من الموجودات حكمها فى ذلك حكم سائرها بالبداهة

فمن الأفعال الاختيارية ما هو معجب فى نفسه تجد النفس منه ما تجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة وتقلب المهرة من اللاعبين فى الألاعيب المعروفة اليوم « بالجمناستيك » وكايقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها . ومنها ما هو قبيح فى نفسه يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه كتخبط ضعفاء

النفوس عند الجزع ، وكولولة النائحات ونقع المذعورين[1]

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الألم ، وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم . فالأول كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من أفعال الإنسان . والثانى كالأكل على جوع والشرب على عطش وكل مايحصل لذة أو يدفع ألما مما لا يحصى عده . وفى هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ ، والقبيح بمعنى المؤلم

وقلما يختلف تمييز الإنسان للحسن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية فى سلسلة الوجود ، اللهم إلا فى قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع ، وما يقبح بما يجر اليه من الضرر ، ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى إذا أخذ من أكمل وجهاته ، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر اللهم إلا من أحط جهاته ، وهو خاصة العقل ، وسر الحكمة الإلهية فى هبة الفكر

فمن اللذيذ ما يقبح لشؤم عاقبته كالافراط فى تناول الطعام والشراب . والانقطاع إلى سماع الأغانى والجرى فى أعقاب الشهوات

(١) نقعهم : صياحهم . يقال نقع الصوت إذا ارتفع . ونقع الصارخ (كفتح) نقعا ونقوعا : رفع صوته

فان ذلك مفسدة للصحة مضيعة للعقل متلفة للمال مدعاة للعجز والذل . وانما قبح اللذيذ فى هذا الموضوع لقصر مدته وطول مدة ما يجر اليه عادة من الآلام التى ربما لا تنتهى إلا بالموت على أسوأ حالاته ، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الألم

ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب فى الأعمال لكسب الرزق وتأمين النفس على حاجاتها فى أوقات الضعف ، ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حيناً من الزمن ، ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب ، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة ان عدت الحياة مثاراً لها

ومن المؤلم الذى عده العقل البشرى حسناً مقارعة الإنسان عدوه سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه أو عن أنصاره ، ومنهم بنو أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته ـ حسب ارتقائه فى الإحساس ـ ومخاطرته ولو بحياته فى سبيل ذلك . كأنه يرى فى بذل هذه الحياة أمناً على حياة أخرى تشعر بها نفسه . وإن لم يحددها عقله . ومنه معاناة التعب فى كشف ما عمى عن علمه من حقائق الكون . كأنه لا يرى المشقة فى ذلك شيئاً بالقياس الى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد الى ما كسبه الغير بسعيه ، واستشفاء ألم الحقد باتلاف نفس المحقود عليه أو ماله ، لما فى ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المتعدى ، ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها

كل هذا عرفه العقل البشرى وفرق فيه بين الضار والنافع ، وسمى الأول فعل الشر والثانى عمل الخير ، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وقد حددهما النظر الفكرى على تفاوت فى الإجمال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين ، وناط بهما سعادة الإنسان وشقاءه فى هذه الحياة ، كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده ، وعزة الأمم وذلتها ، وضعفها وقوتها ، وان كان المحددون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر .

كل هذا من الأوليات العقلية لم يختلف فيه ملى ولا فيلسوف ، فللأعمال الاختيارية حسن وقبح فى نفسها أو باعتبار أثرها فى الخاصة أو فى العامة ، والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعانى السابقة بدون توقف على سمع ، والشاهد على ذلك ما نراه فى بعض أصناف الحيوان ، وما نشهده في أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى

الشرع وما وصل الينا من تاريخ الإنسان وما عرف عنه فى جاهليته

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين فى أحوال النمل قال : كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها[١] فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم ، ورفع البنيان الى الحد الموافق ، ووضع السقف على أرفع مما كان ، وذلك من أنقاض السقف القديم . وهذا هو التمييز بين الضار والنافع ـ فمن زعم أن لا حسن ولا قبح فى الأعمال على الإطلاق فقد سلب نفسه العقل ، بل عدها أشد حمقاً من النمل[٢]

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل ، فاذا وصل مستدل ببرهانه الى اثبات الواجب وصفاته غير السمعية ولم تبلغه بذلك رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ، ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه الى أن مبدأ العقل فى الإنسان يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين ، ثم انتقل من هذا مخطئاً أو مصيباً إلى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه

(١) كان ينبغى أن يقول قرية لها (٢) ليته قال أقل علما من النمل وقد روى عن سليمان عليه السلام : كن حكيما كالنملة

أو شقاء ، ثم قال ان سعادتها انما تكون بمعرفة الله و بالفضائل ، وانها انما تسقط فى الشقاء بالجهل بالله و بارتكاب الرذائل ، و بنى على ذلك أن من الأعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ، ومنها ما هو ضار لها بعده بايقاعها فى الشقاء ، فأى مانع عقلى أو شرعى يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله : ان معرفة الله واجبة ، وان جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة ، وان الرذائل وما يكون عنها محظورة ، وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل ما يعتقد ، والى أن يأخذوا من الأعمال بمثل ما أخذ به من حيث لم يوجد شرع يعارضه .

أما أن يكون ذلك حالا لعامة الناس يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة ، وأن الفضائل مناط السعادة فى الحياة الأخرى والرذائل مدار الشقاء فيها ، فما لا يستطيع عاقل أن يقول به ، والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به فى رأيه

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محدودة كما هى حاجات فيل أو أسد مثلا ، وكان ما وهب له من الفكر واقفاً عند حد ما اليه الحاجة ، لاهتدى الى المنافع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده ، ولسعدت حياته ، وتخلص كل من شر الآخر ، ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع

لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد ، ولا تختص معيشته بجو من الجواء[1] ولا بوضع من الأوضاع ، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله في سد عوزه وتوفير لذاته في أي اقليم وعلى أي حال ، وان يختلف ظهور هذه المدارك في أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافاً لا تنتهي درجاته — ولولا هذا لما خالف بقية الحيوانات الا باستقامة القامة ، وعرض الأظفار

* * *

وهب الله الانسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان: الذاكرة والمخيلة والمفكرة — فالذاكرة تثير من صور الماضي ما ستره الاشتغال بالحاضر ، فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه اليه الأشباه أو الأضداد الحاضرة ، فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكر بضده كما هو بديهي — والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به من الأحوال حتى يصير كأنه مشاهد ، ثم ينشئ له مثال لذة أو ألم في المستقبل يحاكي ما ذهب به الماضي ، ويهز للنفس في طلبه أو الهرب منه . فتلجأ الى الفكر في تدبير الوسيلة اليه

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان ومنها ينبوع بلائه

---

(١) الجو جمعه جواء كسهم وسهام ، وكان في الأصل الاجواء

فمن الناس معتدل الذكر هادئ الخيال صحيح الفكر ، ينظر مثلا فى حال مسرف أنفق ماله فى غير نافع وضاقت يده عما يقيم معيشته فيذكر ألماً لحاجة مضت ، ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء فى سد حاجاته أو فى دفع الألم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره باعطاء المضطر ما يذهب بضرورته ، ثم يتخيل ذلك المال آتياً من وجوهه التى لا يتعلق بها حق من حقوق غيره ، وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة اليه من تلك الوجوه بالعمل القويم فى استخدام ما وهبه الله من القوى فى نفسه ، وما سخره له من قوى الكون المحيطة به

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال ، يرى مالا مثلا فى يد غيره فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ، ويعظم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل ، ولا يزال يعظم فى تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر ، فيستتر عنه ما طاب من وجوه الكسب وإنما يعمد الى استعمال قوته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكه لينفقه فيما تخيل من المنفعة ، فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له وأخل بالأمن الذى أفاضه الله بين عباده ، وسن سنة الاعتداء ، فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول الى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله

وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعها على نحو ما بينا فى المثالين ـ فلقوة الذاكرة وضعفها ، وحدة الخيال واعتداله ، واعوجاج الفكر واستقامته ، أعظم أثر فى التمييز بين النافع والضار فى أشخاص الأعمال ، وللأمزجة والجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر بل وفى الذكر

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضار ، وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه اصابة وجه الحق فى معرفة ذلك ، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وان كان مؤلماً فى الحال ، وان القبيح ما جر الى فساد فى النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به ، وان عظمت لذته الحاضرة ، ولكنهم يختلفون فى النظر الى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم[1] فلذلك ضربوا إلى الشر فى كل وجه ، وكل يظن أنه إنما يطلب نافعاً ويتقى ضاراً . فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته

(١) يقال اكتنفه القوم بمعنى أحاطوا به فهو يتعدى بنفسه وعداه بالباء بحسب معناه

فى هذه الحياة . اللهم إلا فى قليـل ممن لم يعرفهم الزمن ، فان كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيـال وقد سبقت الإشارة إليهم فيما مر .

وليست عقول الناس سواء فى معرفة الله تعـالى ولا فى معرفة حياة بعد هـذه الحياة ، فهم وإن اتفقوا فى الخضوع لقوة أسمى من قواهم ، وشعر معظمهم بيوم بعد هـذا اليوم ، ولـكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسلك السعادة . فليس فى سعة العقل الانسانى فى الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ، ولا أن يفهم من الحيـاة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة ، وإنمـا قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصهم الله بكمال العقل ونور البصيرة وإن لم ينل[1] شرف الاقتداء بهـدى نبوى ، ولو بلغه لـكان أسرع الناس إلى اتباعه . وهؤلاء ربمـا يصلون بأفـكارهم إلى العرفان من وجه غير ما يليق فى الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الإلهى .

ثم من أحوال الحيـاة الأخرى مالا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده ، وهو تفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما .

---

(١) الفاعل ضمير يعود إلى كلمة قليل بحسب لفظها

ومن الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه(١) لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها ، كصور بعض العبادات كما يرى فى أعداد الركعات وبعض الأعمال فى الحج فى الديانة الاسلامية . وكبعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية(٢) وضروب التوسل والزهادة فى

---

(١) أى لا يعرف وجه الفائدة فيه نفسه غير كونه تعبداً مع ظهور فائدته التعبدية وهو فعله لمحض امتثال أمر الله تعالى دون ملاحظة منفعة خاصة به ، ويعبرون عن هذا القسم من العبادة بغير معقول المعنى ويقابله معقول المعنى جملة وتفصيلا كالوضوء والغسل وطهارة البدن والثوب فان فائدة ذلك من حفظ الصحة وراحة النفس وهناء المعيشة ظاهرة . كذلك فائدة الصلاة فى جملتها والصيام والزكاة وغير ذلك من حكم العبادات وقد أجملها المؤلف فى الكلام على الدين الاسلامى ومن المستغرب قوله هنا : لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها

(٢) يظهر لى أن حكمة بعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية هى محاكاة ما ألفه اليهود فى مصر ثم فى فلسطين من رؤية احتفالات الأمم الوثنية مع توجيه الأنفس فيه إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه وحده حتى لا يعودوا الى مثال ما فعلوا فى التيه من اتخاذ عجل كعجل المصريين (ابيس) والى مثل عبادتهم

وأما المبالغة فى الزهد المتواتر عن المسيح عليه السلام فحكمته المبالغة فى مقاومة غلو اليهود والرومان فى عصره فى عبادة المال والشهوات البدنية تمهيداً لدين الاسلام الوسط المعتدل الدائم الذى يجىء به البارقليط روح الحق محمد (ص) الذى بشرهم به وقال انه هو الذى يعلمهم كل شىء

الديانة العيسوية ـ كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه . ويعلم الله أن فيه سعادته (١)

لهذا كله كان العقل الإنسانى محتاجاً ـ فى قيادة القوى الادراكية والبدنية إلى ما هو خير له فى الحياتين ـ إلى معين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الألوهية ومعرفة ما ينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة ـ وبالجملة فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة . ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه ، حتى يكون من بنى جنسه ، ليفهم منه أو عنه ما يقول ، وحتى يكون ممتازاً على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف فى العادة وما عرف فى سنة الخليقة ، ويكون بذلك مبرهناً (٢) على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ما هى عليه ، ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغى أن يعرف منها ، والحياة الآخرة وما أعد فيها ، فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير معيناً للعقل على ضبط ما تشتت عليه أو درك ما ضعف عن إدراكه

(١) ضرب الغزالى مثلا لمعرفة المكلف فائدة العبادة فى جملتها دون بعض تفصيل جزئياتها ووجوب تفويض ذلك إلى علم الله تعالى ، فشبهها بالدواء يعلم المريض بالتجربة أو الثقة بالأطباء انه يشفى من المرض وهو يجهل فائدة تركيبه من أجزاء بعضها قليل كقمحة أو قمحتين و بعضها كثير كأوقية أوعشر أواق مثلا ، ويفوض ذلك الى علم الطبيب

(٢) أكثر نقلة اللغة على أن النون فى البرهان زائدة وان قولهم برهن مولد وإنما يقال أبره أى جاء بالبرهان ، وحكى بعضهم الوجهين كالأزهرى

وذلك المعين هو النبي

النبوة تحدد ما ينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات وما يحتاج اليه البشر كافة من ذلك ، وتشير الى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم فى مقامات عرفانهم . لكنها لا تحتم إلا ما فيه الكفاية للعامة . فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله و بواحدانيته ، و بالصفات التى أثبتناها على الوجه الذى بيناه . وأرشدت الى طرق الاستدلال على ذلك . فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص ، وحسن المعرفة وحظر الجهالة أو الجحود بشىء مما أوجبه الشرع فى ذلك وقبحه ، مما لا يعرف الا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ، ولو استقل عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذى هو عماد الطمأنينة ، فان زيد على ذلك أن العرفان على ما بينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه ، وضده يستحق العقوبة التى نص عليها ـ كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة ، غير أن ذلك لا ينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها وإنما جاء الشرع مبيناً للواقع ، فهو ليس محدث الحسن ، ونصوصه تؤيد ذلك

وأذكر مثالا من كثير : قال تعالى على لسان يوسف (١٢ : ٣٩ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحـــد القهار ؟) يشير بذلك إشارة واضحة الى أن تفرق الآلهـة يفرق بين البشر فى وجهة قلوبهم الى أعظم سلطان يتخـذونه فوق قوتهم ، وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لمـا وجه قلبه اليـه ، وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى ، وأما اعتقاد جميعهم باله واحـد فهو توحيد لمنازع نفوسهم الى سلطان واحد يخضع الجميع لحـكمه ، وفى ذلك نظام اخوتهم، وهى قاعدة سعادتهم، واليها مآلهم فيما أعتقد وإن طال الزمان[1] فـكما جاء الشرع مطالباً بالاعتقاد جاء هاديا لوجه الحسن فيه

النبوة تحدد أنواع الأعمـال التى تناط بهـا سعادة الانسان فى الدارين ، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها ، وكثيراً ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبـح فيما أمر به أو نهى عنـه ،

(١) كان المؤلف رضى الله عنه يعتقد ان ارتقاء الأمم من طريق علوم الـكون والنفس والاجتماع سينتهى بهم الى التوحيد وسائر ما قرره القرآن من أصول الدين (٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ٥٤ ألا انهم فى مرية من لقاء ربهم ألا انه بكل شىء محيط)

فوجوب عمـل من المأمور به أو الندب اليه ، وحظر عمل أو كراهته من المنهى عنه على الوجه الذى حددته الشريعة ، وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا ـ مما لا يستقل العقل بمعرفته ، بل طريقـة معرفته شرعية ، وهو لا ينافى أيضاً أن يكون المأمور به حسناً فى ذاته ، بمعنى أنه مما يؤدى الى منفعة دنيوية أو أخروية باعتبار أثره فى أحوال المعيشة أو فى صحة البدن أو فى حفظ النفس أو المـال أو العرض ، أو فى زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه ، كما هو مفصل فى الأحكام الشرعية . وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حسنه ، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه ، وهـذا النوع لا حسن له الا الأمر ، ولا قبح الا النهى . والله أعلم

الرسالة العامة

نريد بالرسالة العامة بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الانسان وموفيه ما لا غنى له عنــه ، كما وفَّى غيره من الكائنات سداد حاجاتها ووقاء وجودها على القدر الذى حدد لها فى رتبة نوعها من الوجود

والكلام فى هـذا البحث من وجهين (الأول) وهو أيسرها على المتكلم وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الايمان(١). فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد أن الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه ، ومنـذرين بعقابه ، قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته ، وتبيين سلطانه القاهر على عباده ، وتفصيل لأحكامه ، فى فضائل أعمـال وصفات يطالبهم بها ، وفى نقائص فعال وخلائق ينهاهم عنها ـ وان يعتقـد وجوب تصديقهم فى أنهم يبلغون ذلك عن الله ، ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم ، والائتمار بمـا أمروا به والكف عما نهوا عنــه ، وان يعتقد أن منهم من أنزل الله عليه

(١) يقابل هذا الوجه حاجة البشر الى الرسالة وقد عقد له فصلا خاصا سيأتى فى (صفحة ٨٩)

كتباً تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ، ومن الحدود والأحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها ، وان هذه الكتب التى أنزلت عليهم حق ـ وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الآلهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية ، وان هـذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبى فى دعواه ، فتى ادعى الرسول النبوة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم ، وصحة عقولهم ، وصدقهم فى أقوالهم ، وأمانتهم فى تبليغ ما عهد اليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار ، وتنفر منه الأذواق السليمة ، وانهم منزهون عما يضاد شيئا من هـذه الصفات المتقدمة ، وان أرواحهم ممدودة من الجلال الآلهى بما لا يمكن معه لنفس انسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية ـ أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر أفراده : يأكلون ويشربون وينامون ، ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ـ ويمرضون وتمتد اليهم أيدى الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتل الأنبياء

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فان مخالفة السير الطبيعى

المعروف فى الايجاد ممـا لم يقم دليل على استحالته ، بل ذلك مما يقع كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف

فان قيل ان ذلك لا بد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعى ، قلنا ان واضع الناموس هو موجد الـكائنات ، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العـادات ، غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها ولـكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده ، على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الـكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحـادث على أى هيئة وتابعاً لأى سبب اذا سبق فى علمه أنه يحدثه كذلك

المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدى عنـد دعوى النبوة ، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده ، لأن النبى يستند إليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله ، فاصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له فى تلك الدعوى . ومن المحـال على الله أن يؤيد الـكاذب ، فان تأييد الـكاذب تصديق له ، وتصديق الـكاذب كذب وهو محال على الله[1] فمتى ظهرت المعجزة وهى ممـا لا يقدر

(١) يشير المصنف الى أن دلالة المعجزة وضعية لأنها بمعنى التصديق بالقول وهو المشهور وقيل عقلية وقيل عادية ، ومن هـذه المباحث ما قرره المتـكلمون بأدلتهم النظرية ولم يرد فى النصوص السمعية

عليه البشر وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده ، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة

وأما السحر وأمثاله فان سلِّم أن مظاهره فائقة عن[1] آثار الأجسام والجسمانيات فهى لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة فى شىء

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم ، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر ، أو مس عقولهم شىء من الضعف ـ لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الإلهى الذى يفوق كل اختصاص : اختصاصهم بوحيه ، والكشف لهم عن أسرار علمه . ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم ، حجة للمنكر فى إنكار دعواهم ، ولو كذبوا أو خانوا

(١) فعل فاق يتعدى بنفسه يقال فاق أقرانه ولعله ضمنه معنى الانفصال على القول بقياسية التضمين ومثله قوله بعده لا تعلو عن متناول القوى . يقال علاه وعلا بعضهم على بعض وقد ضمنه معنى البعد . والسحر ليس من الخوارق كما توهم بعض المتكلمين فانه صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص القرآن وتاريخ قدماء المصريين وغيرهم وقد بينا حقيقته فى تفسير قصة هاروت وماروت (صفحة ٣٩٨ من الجزء الأول من تفسير المنار)

أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ، ولكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من بعثهم ، والأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد اليهم تبليغه من العقائد والأحكام

وأما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل فى التشريع فجوزه بعضهم والجمهور على خلافه ، وما ورد من مثل أن النبى ﷺ نهى عن تأبير النخل(١) ثم أباحه لظهور أثره فى الاثمار فانما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ، ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مرعية ، والفضائل محمية ، وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذة عليه ، وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سبباً

(١) تأبير النخل تلقيحه والحديث فى صحيح مسلم والروايات صريحة فى تأييد قول المجوزين دون الجمهور منها رواية موسى بن طلحة عن أبيه مرفوعا «ان كان ذلك ينفعهم فليصنعوه فانى انما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فانى لن أكذب على الله عز وجل » ورواية رافع بن خديج « انما أنا بشر اذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر » ورواية عائشة « أنتم أعلم بأمر دنياكم »

لعمارة الأرض ببنى آدم كأن النهى والأكل رمزان الى طورين من أطوار آدم عليه السلام أومظهران من مظاهر النوع الانسانى فى الوجود. والله أعلم[1] ومن العسر إقامة الدليل العقلى أو اصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب اليه الجمهور

---

(١) للمؤلف رحمه الله كلام مفصل فى هذه المسألة قرره فى تفسير قصة آدم من سورة البقرة يطلب من الجزء الأول من تفسير المنار فهو مما لم يحم حوله أحد فيما علمنا

وقد قيل أيضا . ان آدم عليه السلام لم يكن فى الجنة نبيا رسولا ولم يكن معه أمة يخشى أن تسوء قدوتهم به وقد صح فى حديث الشفاعة أن نوحا أول رسول أرسله الله الى أهل الأرض وهو ظاهر عدة آيات فى القرآن لا محل هنا لذكرها . وانما الغرض هناأن قصة آدم عليه السلام لا ترد على الدليل النظرى الذى استدلوا به على عصمة الأنبياء والجمهور يقولون بأن عصمتهم إنما تثبت بعد النبوة لا قبلها والمجمع عليه منها العصمة فى التبليغ أو عما ينافى الرسالة وعن الكفر قال السعد فى شرح المقاصد والمذهب عندنا منع الكبائر بعد البعثة مطلقا والصغائر عمدا لا سهوا ، لكن لا يصرون ولا يقرون بل ينبهون فيتنبهون . ثم أجاب عن معصية آدم بأنها كانت قبل البعثة (قال) وكيف ولم تكن فى الجنة أمة وكان عن نسيان لقوله تعالى (فنسى) الخ

حاجة البشر الى الرسالة

سبق لك فى الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الأول وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده فى الرسل . والكلام فى هذا الفصل موجه إن شاء الله إلى بيان الحاجة اليهم . وهو معترك الافهام ، ومزلة الاقدام ، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام ، ولسنا بصدد الاتيان بما قال الأولون ، ولا عرض ما ذهب اليه الآخرون ، ولكننا نلزم ما التزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد ، والذهاب اليه من أقرب الطرق ، من غير نظر إلى ما مال إليه المخالف ، أو استقام عليه الموافق ، اللهم إلا إشارة من طرف خفى ، أو إلماعاً لا يستغنى عنه القول الجلى ،

وللكلام فى بيان الحاجة الى الرسل مسلكان (الأول) ـ وقد سبق الاشارة اليه ـ يبتدىء من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت ، وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم ، أو تشقى فيها بعذاب أليم ، وأن السعادة والشقاء فى تلك الحياة الباقية ، معقودان بأعمال المرء فى حياته الفانية ، سواء كانت تلك الأعمال

قلبية كالاعتقادات والمقاصد والارادات ، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات

اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين مليين وفلاسفة إلا قليلا لا يقام لهم وزن على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء(١) وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وان اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه ، وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه فمن قائل بالتناسخ فى أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ، ومن ذاهب الى أن التناسخ ينتهى عند ما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال، ومنهم من قال إنها متى فارقت الجسد عادت الى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو مابه شقوتها ، ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ، ألطف من هذه الأجسام المرئية . وكان اختلاف المذاهب فى كنه السعادة والشقاء الأخرويين وفيما هو متاع الحياة الآخرة وفى الوسائل التى تمد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم وتضارب آراء الأمم فيه قديماً وحديثاً مما لا تكاد تحصى وجوهه

---

(١) يريد بالفناء المنفى الزوال المطلق والا فالفناء يطلق على ما فسر به الموت المحتوم

هـذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، وحشيها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لا يمكن أن يعد ضلة عقلية ، أو نزغة وهمية ، وانما هو من الالهامات التى اختص بها هـذا النوع ، فكما ألهم الانسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هـذه الحياة الدنيا ، وان شذ أفراد منه ذهبوا الى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للارشاد فى عمل ما . أو الى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ، ولا للفكر أن يصل الى مجهول ، بل قالوا ان لا وجود للعالم إلا فى اختراع الخيال ، وانهم شاكون حتى فى أنهم شاكون ، ولم يطعن شذوذ هؤلاء فى صحة الالهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء الى الأجل المحدود ، كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان فى الوجود ، بل الانسان ينزع هذا الجسد ، كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر وان لم يدرك كنهه

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء ، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة ، شيقة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية ، مهيأة

لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات ، معرضة لآلام من الشهوات ونزعات الأهـواء ، ونزوات الأمراض على الأجساد ، ومصارعة الجواء والحاجات ، وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ، ولا تنتهى عند حد ، إلهـام يلقتها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود للأنواع ، انمـا قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء ولم يعهد فى تصرفه العبث والكيل الجزاف ، فما كان استعداده لقبول مالا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات ، لا يصح أن يكون بقاؤه قاصراً على أيام أو سنين معدودات

شعور يهيج بالأرواح الى تحسس هذا البقاء الأبدى وما عسى أن تـكون عليه متى وصلت اليه ، وكيف الاهتـداء وأين السبيل ، وقد غاب المطلوب وأعوز الدليـل ؟ شـعورنا بالحاجة الى اسـتعمال عقولنا فى تقويم هـذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا فى الاسـتقامة على المنهج الأقوم ، بل لزمتنـا الحاجة الى التعليم والارشـاد ، وقضاء الأزمنة والأعصـار ، فى تقويم الأنظار وتعديل الأفـكار ، و إصلاح الوجدان ، وتثقيف الأذهان ، ولا نزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا فى اضطراب لا ندرى متى نخلص منه ، وفى شـوق الى طمأنينة لا نعلم متى ننتهى اليها

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب ؟ هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها الى الغائب ؟ وهل فى طرق الفكر ما يوصل كل أحد الى معرفة ما قدر له فى حياة يشعر بها و بأن لا مندوحة عن القدوم عليها ، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ الى تفصيل ما أعد له فيها ، والشئون التى لا بد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه ، أو الى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشئون ؟

هل فى أساليب النظر ما يأخذ بك الى اليقين بمناطها من الاعتقادات والأعمال ، وذلك الكون مجهول لديك ، وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة اليك ؟ كلا فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشاعر ، ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت ، فالنظر فى المعلومات الحاضرة ، لا يوصل الى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة

أفليس من حكمة الصانع الحكيم ، الذى أقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم ، الذى خلق الانسان ، وعلمه البيان ، علمه الكلام للتفاهم ، والكتاب للتراسل ، أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه وهو أعلم حيث يجعل رسالته ؟ يميزهم بالفطر السليمة ، و يبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون

معه للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره ، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم افاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه ، فيشرفون على الغيب باذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالَمَين : نهاية الشاهد ، وبداية الغائب ، فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها ، ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله ، وما خفى عن العقول من شئون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه ، وما قدَّر أن يكون له مدخل فى سعادتهم الأخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة مالا بد لهم من علمه ، معبرين عنه بما تحمله طاقة عقولهم ، ولا يبعد عن متناول أفهامهم ، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم ،فى ذلك الكون المغيب من مشاعرهم بتفصيله ، اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم فى إجماله . ويدخل فى ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ظاهرة وباطنة ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات ، حتى تقوم بهم الحجة ، ويتم الاقناع بصدق الرساله ، فيكونون بذلك رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين

لا ريب أن الذى أحسن كل شىء خلقه ، وأبدع فى كل كائن صنعه ، وجاد على كل حىّ بما اليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه ، يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه ، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره ، أن ينقذه من حيرته ، ويخلصه من التخبط فى أهم حياتيه ، والضلال فى أفضل حاليه

يقول قائل : ولم لم يودع فى الغرائز ما تحتاج اليه من العلم ، ولم يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية فى الحياة الأخرى ؟ وما هذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم ؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل ، والغفلة عن موضوع البحث ، — وهو النوع الانسانى — ذلك النوع على ما به ، وما دخل فى تقويم جوهره من الروح المفكر ، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف أفراده ، وأن لا يكون كل فرد منه مستعداً لكل حال بطبعه ، وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع ، بل كان إما حيواناً آخر كالنحل والنمل ، أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض

المسلك الثانى فى بيان الحاجة الى الرسالة

يؤخذ من طبيعة الانسان نفسه

أرتنا الأيام غابرها وحاضرها أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر وينقطع الى بعض الغابات أو الى الى رءوس الجبال ، ويستأنس الى الوحش ويعيش عيش الأوابد من الحيوان ، يتغذى بالأعشاب وجذور النبات ، ويأوى الى الكهوف والمغاور ، ويتقى بعض العوادى عليه بالصخور والأشجار ، ويكتفى من الثياب بما يخصف من ورق الشجر أو جلود الهالك من حيوان البر ، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا

ولكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدبر(١) وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر لنوعها ، وإنما الانسان نوع من تلك الأنواع التى غُرز فى طبعها أن تعيش مجتمعة وإن تعددت فيها الجماعات ، على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع فى بقائه ، وللمجموع من العمل مالا غنى للواحد عنه فى نمائه وبقائه ، وأودع فى كل شخص من أشخاصها شعوراً مّا بحاجة إلى سائر أفراد الجماعة التى

---

(١) الدبر بالفتح والكسر جماعة النحل وكذا الزنابير

يشملها اسم واحـد . وتاريخ وجود الانسان شاهد بذلك فلا حاجة الى الاطالة فى بيانه . وكفاك من الدليـل على أن الانسان لا يعيش إلا فى جملة ، ما وهبه من قوة النطق ، فلم يخلق لسانه مستعداً لتصوير المعانى فى الألفاظ وتأليف العبارات إلا لاشتداد الحاجة الى التفاهم ، وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر ، إلا الشهادة بأن لا غنى لأحدهم عن الآخر

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لا يشتبه فيه ، وكلما كثرت مطالب الشخص فى معيشته ازدادت به الحـاجة الى الأيدى العاملة ، فتشتد الحاجة ، وعلى أثرها الصلة من الأهل الى العشيرة ثم الى الأمة وإلى النوع بأسره . وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة قد تعم النوع كما لا يخفى

هذه الحاجة خصوصاً فى الأمة التى حققت عنوانها ، لهـا صلات وعلائق ميزتها عمـا سواها : حاجة فى البقاء ، حاجة فى التمتع بمزايا الحياة ، حاجة فى جلب الرغائب ودفع المـكاره من كل نوع

لو جرى أمر الإنسان على أساليب الخلقة فى غـيره ، لـكانت هـذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده ، عامل يشعر كل

نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لمنافعها ودرء مضارها ، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب ، هى الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر ، الناهض بكل منهما للمدافعة عنه فى حالة الخطر ، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظاً لنظام الأمم وروحاً لبقائها ، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون ، فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب أو ما تحب ، فان اشتدت كانت ولعاً وعشقاً

لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين اذا كانت الحاجة الى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها ، ولا يكون هذا النوع منها فى الانسان الا إذا كان منشؤه أمراً فى روح المحبوب وشمائله التى لا تفارق ذاته ، حتى تكون لذة الوصول فى نفس الاتصال لا فى عارض يتبعه . فاذا عرض التبادل والتعارض ولوحظ فى العلاقة بينهما ، تحولت المحبة الى رغبة فى الانتفاع بالعوض ، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع . وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين

يحب الكلب سيده ويخلص له ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه مصدر الاحسان إليه فى سداد عوزه ، فصورة شبعه وريه

وحمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكفلها له ، فهو يتوقع فقدها بفقده ، فيحرص عليه حرصه على حياته ، ولو أنه انتقل من حوزته الى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضاً لخطر مّا عادت إليه تلك الصورة يصل بعضها بعضاً واندفع إلى خلاصه بما تمكنه القوة

ذلك لأن الالهام الذى هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب ، فوجدانه يتردد بين الاحسان ومصدره وليس له وراءهما مذهب ، فحاجته فى سد عوزه هى حاجته الى القائم بأمره ، فيحبه محبته لنفسه ، ولا يبخس منها شوب التعاوض فى الخدمة

أما الانسان — وما أدراك ما هو — فليس أمره على ذلك . ليس ممن يلهم ولا يتعلم ، ولا ممن يشعر ولا يتفكر ، بل كان كماله النوعى فى إطلاق مداركه عن القيد ، ومطالبه عن النهايات ، وتسليمه على صغره إلى العالم الأكبر على جلالته وعظمه ، يصارعه بعوامله وهى غير محصورة ، حتى يعتصر منه منافعه وهى غير محدودة ، وإيداعه من قوى الادراك والعمل ما يعينه على المغالبة ، ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ، ويتبع ذلك أن يكون له فى كل كائن مما يصل اليه لذة ، وبجوار كل لذة ألم ومخافة ، فلا تنتهى رغائبه الى غاية ، ولا تقف مخاوفه عند نهاية (٧٠ : ١٩ إن الانسان خلق هلوعا ٢٠ اذا مسه الشر جزوعا ٢١ وإذا مسه الخير منوعا)

تفاوتت أفراده فى مواهب الفهم وفى قوى العمل ، وفى الهمة والعزم ، فمنهم المقصر ضعفاً أو كسلا ، المتطاول فى الرغبة شهوة وطمعاً ، يرى فى أخيه أنه العون له على ما يريد من شئون وجوده ، لكنه يذهب من ذلك الى تخيل اللذة فى الاستئثار بجميع ما فى يده ، ولا يقنع بمعاوضته فى ثمرة من ثمار عمله ، وقد يجد اللذة فى أن يتمتع ولا يعمل ، ويرى الخير فى أن يقيم مقام العمل ، إعمال الفكر فى استنباط ضروب الحيل ، ليتمتع وان لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لا ضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ، ولا يبالى بارساله الى عالم العدم بعد سلبه ، فكلما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة أو الوصول إلى لذيذ فتح له الفكر باباً من الحيلة ، أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة ، فقام التناهب مقام التواهب ، وحل الشقاق محل الوفاق ، وصار الضابط لسيرة الانسان إما الحيلة و إما القهر

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية وتجالد أفراده طمعاً فى وصول كل الى ما يظنه غاية مطلبه و إن لم تكن له غاية ؟ كلا ! ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية ، وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما حسبما يمتد إليه نظره ، وقد بلغت هذه الشهوة حداً من الأنفس

كادت تتغلب على جميع الشهوات ، وأخذت لذة الوصول إليها من الأرواح مكاناً كاد لا تصعد إليه[1] سائر اللذات ، وهى من أفضل العوامل فى إحراز الفضائل ، وتمكين الصلات بين الأفراد والأمم ، لو صرفت فيما سيقت لأجله ، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للأسباب التى أشرنا إليها من التفاوت فى مراتب الإدراك والهمة والعزيمة ، حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى إلى إعلاء منزلته فى القلوب باخافة الامن[2] وازعاج الساكن ، و إشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيُّب الحرمة

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بنى نظامهم وعلق بقاؤهم فى الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضاً فى الأعمال ؟ أولا تكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها سبباً فى تفانيهم ؟ لا ريب أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال ، فلا بد للنوع الانسانى فى حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها

لجأ بعض أهل البصيرة فى أزمنة مختلفة الى العدل ، وظنوا كما

(١) الاصل أن يقال : لا تكاد تصعد اليه الخ أو كاد أن لا تصعد اليه
(٢) يحتمل أن تكون الكلمة « الآمن » اسم فاعل وهو المناسب لما بعده ، وأن تكون مصدرا بمعناه وهو ظاهر نسخة المؤلف إذ ليس فيها علامة المد

ظن بعض العارفين ونطق به فى كلمة جليلة « ان العدل نائب المحبة » نعم لا يخلو القول من حكمة ، ولكن من الذى يضع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها ؟ قيل ذلك هو العقل ؟ فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء ، كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة . وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل واصالة الحكم ، تذهب بكثير من الناس الى ما وراء حجب الشهوات ، وتعلو بهم فوق ما تخيله المخاوف ، فيعرفون لكل حق حرمته ، ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى ، وقد جاء منهم أفراد فى كل أمة وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه الرذيلة ، وقسموا أعمال الانسان الى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته وهو ما يجب اجتنابه ، والى ما قد يشق احتماله ولكن تسر مغبته وهو ما يجب الأخذ به ومنهم من أنفق فى الدعوة الى رأيه نفسه وماله ، وقضى شهيد إخلاصه فى دعوة قومه الى ما يحفظ نظامهم ، فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل ، وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها ، وبذلك يستقيم أمر الناس

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ، ولكن هل سمع فى سيرة الانسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم

لرأى العاقل لمجرد أنه الصواب ؟ وهل كفى فى اقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم : إنهم مخطئون وإن الصواب فيما يدعوهم اليه ؟ وان أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء ، وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ؟ كلا ! لم يعرف ذلك فى تاريخ الانسان ولا هو مما ينطبق على سنته ، فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الادراك ، وهم مع ذلك يدعون المساواة فى العقل والتقارب فى الأصول ، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل ، الا كما يعرف من أمر الجاهل ، ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل ، لم يذق مذاقك من الفضل ، فمجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعا ولا يرد طمأنينة ، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها ، فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ، ويتهدم بناؤها ، ويفقد ما قصد بوضعها

أضف الى ما سبق من نزعات الفكر ونزغات الأهواء ، شعوراً هو ألصق بالغريزة البشرية وأشد لزوماً لها : كل انسان مهما علا فكره وقوى عقله ، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته ، يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله ، وأنه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم فى وجوه

ربما لا تعرفها معرفة العارفين ، ولا تتطرف اليها ارادة المختارين .

تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى ، فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ، ولا سبيل لها الا الطريق التى حددت لنوعها وهى طريق النظر ، فذهب كل فى طلبها وراء رائد الفكر ، فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها أو شدة ضررها ، ومنهم من تمثلت له فى بعض الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من حجبته الأشجار والأحجار لاعتبارات له فيها ، ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة فى أنواع متفرقة تماثل فى أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الأنواع ، فجعل لكل نوع إلها

ولكن كلما رق الوجدان ولطفت الأذهان ونفذت البصائر ، ارتفع الفكر وجلت النتائج ، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة ، واهتدى الى أنها قدرة واجب الوجود ، غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه فلم يسلم من الخبط فيه ، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة فى قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه ، فبقى الخلاف ذائعاً والرشد ضائعاً

اتفق الناس فى الاذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعاتهم ، لكنهم اختلفوا فى فهم ما تلجئهم الفطرة الى الاذعان له اختلافا كان

أشد أثراً فى التقاطع بينهم واثارة أعاصير الشقاق ، فيهم ، من اختلافهم فى فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم

ان كان الانسان قد فطر على أن يعيش فى جملة ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل و بعض أفراد النمل مثلا من الالهام الهادى الى ما يلزم لذلك ، وانما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ما سبق ، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته ، ولم يفض عليه مع هذا الشعور عرفانه(١) بذات ذلك القاهر ولا صفاته ، وانما ألقى به فى مطارح النظار ، تحمله الأفكار فى مجاريها وترمى به الى حيث يدرى ولا يدرى ، وفى كل ذلك الويل على جامعته ، والخطر على وجوده ، فهل منى هذا النوع بالنقص ورزىء بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود ؟ نعم هو كذلك لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه

الانسان عجيب فى شأنه : يصعد بقوة عقله الى أعلى مراتب

---

(١) لعل الأصل « عرفان» فان فى اضافة العرفان المنفى الى المنفى عنه إثباتا له فإن الأصل فى مثل هـذه الاضافة الملك وما فى معناه وهذا جمع بين النفى والاثبات كما بينه الامام عبد القاهر فى دلائل الاعجاز وهو ظاهر بنفسه لمن تأمله والناس عنه غافلون

الملكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت[1] ويسامى بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم ، ثم يصغر ويتضاءل وينحط الى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر مّا لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ، ذلك لسر عرفه المستبصرون ، واستشعرته نفوس الناس أجمعين

من ذلك الضعف قيد الى هداه ، ومن تلك الضعة أخذ بيده الى شرف سعادته ، أكمل الواهب الجواد لجملته ما اقتضت حكمته فى تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده[2] وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحر والبرد ، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء ، وآثر فى الوقاية من غوائل الشقاء ، وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالاجماع ـ منَّ عليه بالنائب الحقيقى عن المحبة بل الراجع بها الى النفوس التى أقفرت منها ، لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد ، غير أنه أتاه مع

(١) الملكوت صيغة مبالغة للملك ولا يطلق الا على ما لله تعالى منه دون ملك البشر ومثله الرحموت والرهبوت والجبروت وهذا من الجبر وهو اصلاح الكسر ، وللملكوت والجبروت معنى آخر فى اصطلاح الصوفية يراجع فى تعريفات السيد الجرجانى وغيرها

(٢) أى أكمل للمجموع مالا يصل اليه كسب الافراد مما يفضل به النوع غيره وهو الوحى الذى هو له كالعقل للأفراد

ذلك من أضعف الجهات فيه وهى جهة الخضوع والاستكانة ، فأقام له من بين أفراده مرشدين هاديين ، وميزهم من بينها بخصائص فى أنفسهم لايشركهم فيها سواهم ، وأيد ذلك زيادة فى الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذى الطامح ، ويذل الجامح ، ويصدم بها عقل العاقل فيرجع الى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون العقول بهالا مندوحة عن الاذعان له ، ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك ، والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل ، والمفضول والفاضل ، فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى .

يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما أراد أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته — وأولئك هم الأنبياء والمرسلون — فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان ومن أهم حاجاته فى بقائه . ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص نعمة أتمها الله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد

امكان الوحى

الـكلام فى إمكان الوحى يأتى بعد تعريفه لتصوير المعنى الذى يراد منه . ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه ، ولا يعنينا ما تثيره الألفاظ فى الأذهان . ولنذكر من اللغة ما يناسبه ، يقال : وحيت اليه وأوحيت ـ اذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، والوحى مصدر من ذلك ، والمـكتوب والرسالة ، وكل ما ألقيته الى غـيرك ليعلمه . ثم غلب فيما يلقى الى الأنبياء من قبل الله . وقيل : الوحى إعلام فى خفاء ، و يطلق و يراد به الموحى . وقد عرفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة . والأول بصوت يتمثل لسمعه (١) أو بغير صوت ، و يفرق بينه و بين الالهام بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور

(١) كصلصلة الجرس أو كلام الملك كما ورد فى الحديث الثانى من صحيح البخارى اهـ من حاشية نسخة المؤلف

أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك ، وسهولة فهمه عند العقل ، فلا أراه مما يصعب ادراكه إلا على من لا يريد أن يدرك ، ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم . نعم يوجد فى كل أمة وفى كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص فى العلم إلى ما وراء سواحل اليقين ، فيسقطون فى غمرات من الشك فى كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس ، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الاشارة اليه ، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان ، فينسون العقل وشئونه ، وسره ومكنونه ، ويجدون فى ذلك لذة الاطلاق عن قيود الأوامر والنواهى ، بل عن محابس الحشمة التى تضمهم إلى التزام ما يليق ، وتحجزهم عن مقارفة مالا يليق ، كما هو حال غير الانسان من الحيوان ، فاذا عرض عليهم شىء من الكلام فى النبوات والأديان ، وهمّ من أنفسهم هامٌّ بالاصغاء ، دافعوه بما أوتوا من الاختيار فى النظر ، وانصرفوا عنه ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، حذر أن يخالط الدليل أذهانهم ، فيلزمهم العقيدة ، وتتبعها الشريعة ، فيحرموا لذة ما ذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا ، وهو مرض فى الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم ان شاء الله

قلت : أى استحالة فى الوحى وأن ينكشف لفلان مالا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ، مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ، ومانح النظر ، متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة؟

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة تعلو بعضها بعضاً ، وان الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الاجمال ، وان ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط . بل لا بد معه من التفاوت فى الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه . ولا شبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهى عند من هو أرقى منه . ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك إلى مالا يحصره العدد ، وان من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها[1] قريباً فيسعى اليه ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار اليه كأنه من المعروف الذى لا ينازع ، والظاهر الذى لا يجاحد ، فاذا أنكره منكر ثاروا عليه . ثورتهم فى بادئ الأمر على من دعاهم اليه . ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً فى كل أمة إلى اليوم

فاذا سلم « ولا محيص عن التسليم » ما أسلفنا من المقدمات ،

(١) أى يرى البعيد عن صغار النفوس والهمم قريبا عنده

فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها ، أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الآلهى لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهى من الانسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ، ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ، ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ، ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه اليهم ، وأن يكون ذلك سنة الله فى كل أمة وفى كل زمان على حسب الحاجة ، يظهر برحمته ، من يختصه بعنايته ، ليفى للاجتماع بما يضطر اليه من مصلحته ، إلى أن يبلغ النوع الانسانى أشده ، وتكون الأعلام التى نصبها لهدايته إلى سعادته كافية فى إرشاده ، فتختم الرسالة ، ويغلق باب النبوة ، كما سنأتى عليه فى رسالة نبينا ﷺ

أما وجود بعض الأرواح العالية ــ وهم الملائكة المكرمون ــ وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية ، فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا ، وأرشدنا إليه العلم قديمه وحديثه من اشتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة و إن غيب عنا ، فأى مانع من أن يكون بعض

هـذا الوجود اللطيف مشرقاً لشىء من العلم الآلهى ، وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليـه ، فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الاذعان بصحته ؟(١)

أما تمثـل الصوت وأشباح لتلك الأرواح فى حسن من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الأنبياء مالا يبعد عنـه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم . فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم و يصل إلى درجة المحسوس فيصدق المريض فى قوله إنه يرى و يسمع ، بل يجالد و يصارع ، ولا شىء من ذلك فى الحقيقة بواقع ، فان جاز التمثل فى الصور المعقولة ولا منشأ لها الا فى النفس وان ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية ، وأن يكون ذلك لهـا عندما تنزع عن عالم الحس ، وتتصل بحظائر القدس . وتـكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجـة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد فى مزاج غيرهم ؟ وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم

(١) قال فى الأساس : أذعن له : سلس وانقاد . وأذعن فلان بحق: أقر به اه وكلا المعنيين يصح هنا ولـكنه فى الأول أظهر

بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم[١] وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم ، لأن شأنهم فى الناس أيضا غير الشئون المألوفة ، وهـذه المغايرة من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم . والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنـه ان أمراض القلوب تشفى بدوائهم ، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة فى أممهم التى تأخذ بمقالهم ، ومن المنـكر فى البديهة أن يصـدر الصحيح من معتل ، ويستقيم النظام بمختل .

أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ، ممن لم

(١) بل ثبت بتجارب الأطباء حتى الماديين منهم أن بعض هؤلاء المرضى يخبر ببعض المغيبات وبالأمور قبل وقوعها فيصدق . قال مريض منهم كثرت أخباره فى ذلك وكان بمصر : ان فلانا ـ من أقاربه ـ فى الاسكندرية خرج من داره الى محطتها قاصداً السفر الى مصر لعيادتى ... ثم أخبر أنه وصل الى محطتها ودخل القطار ثم شغله الطبيب بأمور تهمه حتى إذا ما جاء موعد وصول قطار الاسكندرية الى مصر قال المريض قد وصل القطار ونزل فلان منه ... هاهو ذا خرج من المحطة وركب مركبة تحمله الى هنا . ثم قال ها هو ذا قد وصل ، فاذا هو بالباب وقد دخل . فالروح التى تدرك مثل هـذا وهو غائب عنها تعطينـا دليـلا حسياً على امكان إدراك روح أكمل منها لعلوم من الغيب أعلى مما أدركته هى

تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الانس ، بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس : لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف . ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم ، المتلألىء فى بصائرهم ، الى دعوة من يحف بهم الى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة ، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ، ومآل من غرروا به . ولا يكون لهم إلا سوء الأثر فى تضليل العقول وفساد الأخلاق ، وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلطفه فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار

فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بامكان ما أنبؤا به وبوقوعه الاحجاب من العادة ، وكثيراً ما حجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة

وقوع الوحى والرسالة

الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكى عن ربه ظاهر للشاهد الذى يرى حاله ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ، ويحقق بالعيان ، ما يغنيه عن البيان ، كما سلف فى الوجه الأول من الكلام على الرسالة . وأما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر ، وهو كما تبين فى علم آخر رواية خبر عن مشهود[١] من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب ، وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه ، كالاخبار بوجود مكة أو بأن للصين عاصمة تسمى (بكين) وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة ، وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ، ومرجع كل ذلك إلى العدد ، وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر

لا نزاع بين العقلاء فى أن هذا النوع من الاخبار يحصل اليقين

(١) قوله ﴿ مشهود ﴾ أى شيء شهده المخبرون ، وحضروا وقوعه فكان معلوما بالحس قطعا كأخبار من سمعوا قولا بأنهم سمعوه ومنه تواتر القرآن وبعض الأخبار دون كتب أهل الكتاب فانه ليس عندهم أسانيد متصلة فى نقلها لا متواترة ولا آحادية

بالمخبر به ، وإنما النزاع فى اعتبارات تتعلق به . ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كابراهيم وموسى وعيسى . ومما جاء به الخبر أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطاناً ، ولا بالأكثر مالا ، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا إليه ، وغاية الأمر أنهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس وتنبو عنهم الأنظار ، ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة المال لديه ، واستعلائه عليهم بما كسب من العلم ، قاموا بدعوة إلى الله على رغم الملوك وأجنادهم ، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم ، وادعوا أنهم يبلغون عن خالق السموات والأرض ما أراد شرعه للناس ، وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة ، ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغريزة فى الفطر ، وكان الخير لأممهم فى اتباع ما جاءوا به

حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ، ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها ، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدى لا يصلح معه فى العقل أن يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله ، ولا فى دعواهم أنه كان يوحى إليهم ما شرعوا للناس على أن من لا يعتقد ما يقول ، لا يبقى لمقاله أثر فى العقول ، والباطل لا بقاء له إلا فى الغفلة عنه ، كالنبات الخبيث فى الأرض الطيبة ينبت

باهمالها ، و ينمو[1] باغفالها ، فاذا لامستها عناية يد الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء ، ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الأنبياء قامت فى العالم الانسانى ما شاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه ، مع كثرة المعارضين ، وقوة سلطان المغالبين ، فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة ، وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائماً فى خلال ما ألحق به المبتدعون

وأما بقية الرسل ممن يجب علينا الايمان بهم[2] فيكفى فى إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا ﷺ فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به ، وسنأتى على الكلام فى رسالة نبينا محمد ﷺ فى باب على حدته إن شاء الله

(١) نما ينمو لغة ضعيفة فى نمى ينمى شاع استعمالها فى عصرنا
(٢) أى بالتفصيل وهم الذين صرح القرآن برسالتهم وذكرهم باسمائهم وعددهم ٢٣ أو ٢٤ أو ٢٥ خلاف

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم فى حاجة العالم الاسلامى الى الرسل أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص وأن بعثهم حاجة من حاجات العقول البشرية قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ، ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه ـ ولكنها حاجة روحية ، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه الى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة أو تقويم ملكاتها أو إيداعها مافيه سعادتها فى الحياتين

وأما تفصيل طرق المعيشة والحذق فى وجوه الكسب ، وتطاول شهوات العقل الى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من وجه العظة العامة والارشاد الى الاعتدال فيه ، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريباً فى الاعتقاد بأن للكون إلهاً واحداً قادراً عالماً حكيما متصفاً بما أوجب الدليل أن يتصف به ، وباستواء نسبة الكائنات إليه فى أنها مخلوقة له وصنع قدرته ، وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال ،

وشرطه أن لا ينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحداً من الناس بشر فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حدد فى شريعتها

يرشدون العقل الى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته ، ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان(١) على وجه لا يشق عليه الاطمئنان اليه(٢) ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة ، يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده(٣) وينهضون نفوسهم الى التعلق به فى جميع الأعمال والمعاملات ، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات ، تذكرة لمن ينسى ، وتزكية مستمره لمن يخشى ، تقوي ما ضعف منهم ، وتزيد المستيقن يقيناً

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم ، فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ،

(١) هو أن لا يبحث عن كنه ذاته وصفاته كما تقدم (٢) لأنه لايصل الى المستحيل الذى يتوقف التسليم به على نبذ العقل الذى هو مشرق الايمان (٣) أى يدعونه ويتقربون اليه بما شرع لهم من الدين لابوسائط من الخلق تقربهم اليه كحجاب الملوك ووزرائهم

ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ، ولا تفوت به المنافع الخاصة[١]

يعودون بالناس إلى الألفة ، ويكشفون لهم سر المحبة ، ويلفتونهم الى أن فيها انتظام شمل الجماعة ، ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها[٢] قلوبهم ، ويشعروها أفئدتهم ، يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وان كان لا يغفل حقه ، وأن لا يتجاوز فى الطلب حده ، وأن يعين قويهم ضعيفهم ويمد غنيهم فقيرهم . ويهدي راشدهم ضالهم . ويعلم عالمهم جاهلهم

يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم كاحترام الدماء البشرية إلا بحق مع بيان الحق الذي تهدر له ، وحظر تناول شيء مما كسبه الغير إلا بحق مع بيان الحق الذي يبيح تناوله ، واحترام الأعراض ، مع بيان ما يباح وما يحرم من الابضاع، ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود[٣] والرحمة بالضعفاء والاقدام على نصيحة الأقوياء والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء[٤]

---

(١) أى كالزكاة (٢) أى المحبة (٣) ومنها المعاهدات الدولية مع الأجانب (٤) أى لافرق فيه بين مسلم وكافروقوى وضعيف وقريب وبعيد

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية، الى طلب الرغائب السامية ، آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والانذار والتبشير ، حسبما أمرهم الله جل شأنه

يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم ، وما يعرضهم لسخطه عليهم ، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده ، وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع فى محظوراته

يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به[1] مما لوصعب على العقل اكتناهه ، لم يشق عليه الاعتراف بوجوده

بهذا تطمئن النفوس ، وتثلج الصدور ، ويعتصم المرزوء بالصبر ، انتظاراً لجزيل الأجر ، أو ارضاء لمن بيده الأمر، وبهذا ينحل أعظم مشكل فى الاجتماع الانسانى لايزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله الى اليوم[2]

---

(١) كالملائكة والجن وأحوال الآجرة

(٢) يعنى مشكل العمال وما نشأ عنه من الاشتراكية والفوضية بأنواعها وأوربة كلها فى حيرة من تلافى هذا الامر ويسهل تلافيه بالدين الاسلامى الذى فرض الزكاة وأمر بالصدقة وهدى الأنفس الى الرضا بما قسم لها طلبا لسعادة الآخرة مع بذل الجهد فى السعى

ليس من وظائف الرسل ما هو عمل المدرسين ومعلمى الصناعات فليس مما جاؤا له تعليم التاريخ · ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها . ولا ما استكن من طبقات الأرض . ولا مقادير الطول فيها والعرض . ولا ما تحتاج اليه النباتات فى نموها . ولاما تفتقر اليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها وغير ذلك مما وضعت له تلك العلوم وتسابقت فى الوصول الى دقائقه الفهوم . فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة . هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من الادراك . يزيد من سعادة المحصلين . ويقضى فيه بالنكد على المقصرين ولكن كانت سنة الله فى ذلك أن يتبع طريقة التدرج فى الكمال وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الاجمال بالسعى فيه وما يكفل التزامه الوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء

وأما ما ورد فى كلام الأنبياء من الاشارة الى شىء مما ذكرنا فى أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض فانما يقصد منه النظر الى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه ، أو توجيه الفكر الى الغوص لادراك أسراره وبدائعه ، ولغتهم عليم الصلاة والسلام فى مخاطبة أممهم

لا يجوز أن تـكون فوق ما يفهمون والا ضاعت الحـكمة فى ارسـالهم ولهذا قد يأتى التعبير الذى سيق الى العـامة ، بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة ، وكذلك ما وجه الى الخاصة يحتاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة . وهذا القسم أقل ما ورد فى كلامهم (١)

على كل حال لا يجوز أن يقـام الدين حاجزاً بين الأرواح و بين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الـكائنات الممـكنة بقدر الامكان . بل يجب أن يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان . مطالباً لها باحترام البرهان ، فارضاً عليها أن تبـذل ما تستطيع من الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم ، ولـكن مع التزام القصد ، والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد ، ومن قال غير ذلك فقــد جهل الدين ، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب العالمين

(١) أى اذا كان القسم الاول الذى يحتاج الى التأويل والتفسير قليلا كما تدل عليه كلمة (قد) فهذا اقل منه . واكثر كلامهم يفهمه جميع العارفين بلغتهم على تفاوت عظيم فى الفهم يرفع بعضهم درجات فى العلم

اعتراض مشهور

قال قائل إن كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكمالا لنظام اجتماعهم وطريقا لسعادتهم الدنيوية والأخروية فما بالهم لم يزالوا أشقياء ، عن السعادة بعداء ، يتخالفون ولا يتفقون ، يتقاتلون ولا يتناصرون ، يتناهبون ولا يتناصفون ، كل يستعد للوثبة ، ولا ينتظر الا مجىء النوبة ، حشو جلودهم الظلم ، وملء قلوبهم الطمع ، عد أهل كل ذى دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه ، واتخذوا منه سببا جديداً للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع ، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم فى فهمه ، وتتفاوت عقولهم فى عقائدهم ، ويثور بينهم غبار الشر ، وتتشبث أهواؤهم بالفتن ، فيسفكون دماءهم ، ويخربون ديارهم ، الى أن يغلب قويهم ضعيفهم ، فيستقر الأمر للقوة لا للحق والدين ، فما هو (ذا) الدين الذى تقول انه جامع الكلمة ورسول المحبة ، كان سببا فى الشقاق ومضرماً للضغينة ، فما هذه الدعوى وما هذا الأثر ؟

نقول فى جوابه نعم كل ذلك قد كان ولكن بعد زمن الأنبياء وانقضاء عهدهم ووقوع الدين فى أيدى من لا يفهمه أو يفهمه

ويغلو فيه ، أو لا يغلو فيه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه . أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء أنفسهم ، أو الخيرة من تبعتهم ، والا فقل لنا أى نبي لم يأت أمته بالخير الجم ، والفيض الأعم ، ولم يكن دينه وافياً بجميع ما كانت تمس اليه حاجتها ، فى أفرادها وجملتها ؟

أظن أنك لا تخالفنا فى أن الجمهور الاعظم من الناس – بل الكل الا قليلا – لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق أرسطو ، بل لو عرض أقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبر لما أدركوا منها الا خيالا لا أثر له فى تقويم النفس ، ولا فى اصلاح العمل . فاعتبر هذه الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها . ثم انصب نفسك واعظا بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع اليها ، فأى الطرق أقرب اليك فى مهاجمة شهواتها ، وردها الى الاعتدال فى رغائبها ؟

من البديهى انك لا تجد الطريق الاقرب فى بيان[1] مضار الاسراف فى الرغب ، وفوائد القصد فى الطلب ، وما ينحو نحو ذلك مما لا يصل اليه أرباب العقول السامية الا بطويل النظر ، وإنما تجد أقصد الطرق وأقومها أن تأتى اليه من نافذة الوجدان المطلة على

(١) قوله فى بيان الخ هو المفعول الثانى لقوله لا تجد

سر القهر المحيط به من كل جانب ، فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ما وهب ، الغالب عليه فى أدنى شئونه إليه ، المحيط بما فى نفسه ، الآخذ بأزمة همه ، وتسوق إليه من الأمثال فى ذلك ما يقرب إلى فهمه ، ثم تروى له ما جاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ، ومن سير السلف فى ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة ، وتنعش روحه بذكر رضا الله عنه إذا استقام ، وسخطه عليه اذا تقحم ، عند ذلك يخشع منه القلب ، وتدمع العين ، ويستخذى الغضب ، وتخمد الشهوة ، والسامع لم يفهم من ذلك كله الا أنه يرضى الله وأولياءه اذا أطاع ويسخطهم اذا عصى ، ذلك هو المشهود من حال البشر غابرهم وحاضرهم ، ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم

كم سمعنا أن عيونا بكت وزفرات صعدت وقلوبا خشعت لواعظ الدين ، لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدى نصاح الأدب وزعماء السياسة ؟ متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم ، لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ، و ينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك ؟ هذا أمر لم يعهد فى سير البشر ولا ينطبق على فطرهم ، وإنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد[1] ولا قيام للأمرين إلا بالدين ، فعامل الدين هو أقوى

(١) التقاليد هى العادات الموروثة . قاله المؤلف فى الدرس

العوامل فى أخلاق العامة بل والخاصة ، وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم

قلنا ان منزلة النبوات من الاجتماع هى منزلة العقل من الشخص أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك ، بل نصعد الى ما فوق ذلك ونقول منزلة السمع والبصر ، أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر ، و بين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة ، ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره فيتردى فى هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه – يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج وعناد . وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شيء ، و يعلم ذلك الباغى فى رأيه من أهل الشر ، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أونحوها ، ولكن وقوع هذه الأمثال لاينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لأجله – كذلك الرسل عليهم السلام أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة فمن الناس من اهتدى بها فانتهى الى غايات السعادة ، ومنهم من غلط فى فهمها أو انحرف عن هديها فانكب فى مهاوى الشقاء – فالدين هاد والنقص يعرض لمن دُعوا الى الاهتداء به ، ولا يطعن نقصهم فى كماله واشتداد حاجتهم اليه (٢ : ٢٦ يضل به كثيراً و يهدى به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين)

ألا إن الدين مستقر السكينة ، وملجأ الطمأنينة ، به يرضى كل بما قسم له ، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة فى الكون ، وبه ينظر الانسان الى من فوقه فى العلم والفضيلة ، والى من دونه فى المال والجاه ، اتباعا لما وردت به الأوامر الالهية

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعى الاختيارية ، الدين قوة من أعظم قوى البشر وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى ، وكل ما وجه الى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده فتبعته فى أعناق القائمين عليه ، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة اليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه . وما عليهم فى إبلاغ القلوب بغيتها منه الا أن يهتدوا به ، ويرجعوا الى أصوله الطاهرة الاولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع ، فترجع اليه قوته وتظهر للأعمى حكمته

ربما يقول قائل : ان هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأى القائلين باهمال العقل بالمرة فى قضايا الدين . وبأن أساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام ، فنقول لو كان الأمر كما عساه أن يقال لما كان الدين علماً يهتدى به ، وانما الذى سبق تقريره هو أن العقل

وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى ، كما لا يستقل الحيوان فى إدراك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها ، بل لا بد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلا[1] كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله والاذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال .

كيف ينكر على العقل حقه فى ذلك وهو الذى ينظر فى أدلتها ليصل منها إلى معرفتها ، وأنها آتية من قبل الله ــ وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبى أن يصدق بجميع ما جاء به وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه والنفوذ إلى حقيقته ، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى الى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد ، فان ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتى به . فان جاء ما يوهم ظاهرَ ذلك فى شىء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد ، وله الخيار بعد ذلك فى التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى فى كلامه ، وفى التفويض الى الله فى علمه . وفى سلفنا من الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثانى

(١) قال المؤلف فى الدرس : هذه القضية مهملة تصدق بالبعض فلا يناقضها أن بعض الديدان له حاسة واحدة يدرك بها كل ما يحتاج الى إدراكه

رسالة محمد ﷺ

ليس من غرضنا فى هـذه الوريقات أن نلم بتاريخ الأمم عامة وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمـدية ، لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة الى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم ، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء[١] الى من دونهم من رعاياهم الضعفاء ، والى نار تنقض من سماء الحق على أُدُم الأنفس البشرية لتأ كل ما اعشوشبت به من الأباطيـل القاتلة للعقول ، وصيحة فصحى تزعج الغافلين ، وترجع بألباب الذاهلين ، وتنبه المرءوسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين ، والهداة الضالين ، والقادة الغارين ، وبالجمـلة تثوب بهم إلى رشد يقيم الإنسان على الطريق التى سنهـا الله له (إنّا هديناه السبيل[٢]) ليبلغ بسلوكها كماله ، ويصل على نهجها إلى ما أعد فى الدارين له ، ولـكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهما من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان و إنصاف

(١) ضرب من التمثيـل كما هو ظاهر وصرح به المؤلف فى الدرس وكذلك قوله « والى نار » وقس على ذلك (٢) قال المؤلف فى الدرس : المراد بالسبيل والطريق ، فطرة الله التى فطر الناس عليها

كانت دولتا العالم[1] دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب ـ فى تنازع وتجالد مستمر : دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظلم من الاحن حالكة ، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالغة حد مالا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة . وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد ، فزادوا فى الضرائب وبالغوا فى فرض الاتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، وأتوا على مافى أيديها من ثمرات أعمالها . وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف ، وفكر العاقل ، فى الاحتيال لسلب الغافل ، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب من ضروب الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم فصار هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر إليها من ذوى

(١) بيان للكلمة التى استعارها من التاريخ قال فى الدرس : وفاتنى وقت الكتابة ذكر دولة الصين فانها كانت أيضا ممزقة بالحروب الأهلية ومع التركمان وسنذكرها فى طبعة ثانية

الألباب ، ففقد بذلك الاستقلال الشخصى ، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلى لخدمة ساداتهم ، وتوفير لذاتهم ، كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها ، ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ، ولكن بقى لها من قوة الفكر أردأ بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الالهى الذى يخالط الفطر الانسانية قد يفتق الغلف التى أحاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول ، فتهتدى العامة إلى السبيل ، ويثور الجم الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحباً من الأوهام ، ويهيئوا كسفاً من الأباطيل والخرافات ، ليقذفوا بها فى عقول العامة ، فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ، ويختنق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم ، وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل ، وعدو كل ما يثمره النظر ، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس ، وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ، ومدد لا ينفد

هذه حالة الاقوام كانت فى معارفهم ، وذلك كان شأنهم فى معايشهم ، عبيد أذلاء ، حيارى فى جهالة عمياء ، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية ، والشرائع السابقة ، آوت إلى بعض الأذهان ، ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس فى مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام ، مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل والشريعة معاً ، وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين فى شعوب متعددة ، وكان ذلك و يلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب

وكانت الأمة العربيـة قبائل متخالفة فى النزعات ، خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة فى قتال أختها ، وسفك دماء أبطالهـا ، وسبي نسائها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع ، الى المعامع ، و يزين لها السيئات ، فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها ، و بلغوا من تضعضع الأخلاق وهناً قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عارحياتهن أو تنصلا من نفقات معيشتهن ، و بلغ الفحش منهم مبلغاً لم يعـد معه للعفاف قيمة ، و بالجملة فـكانت ربط[1] النظام الاجتماعى قد تراخت

(١) الربط بضمتين جمع رباط وهو ما يربط به

عقدها فى كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة[1]

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤديهم برجل منهم يوحى اليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التى أظلت رءوس جميع الأمم ؟ نعم كان ذلك وله الأمر من قبل ومن بعد

* * *

فى الليلة الثانية عشرة[2] من ربيع الأول عام الفيل « ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى بمكة . ولد يتيما ، توفى والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال الا خمس جمال وبعض نعاج[3] وجارية

(١) يستدرك هنا أن العرب كانوا يفضلون جميع الأمم بصفات وأخلاق كانت سبب ظهور المصلح الأعظم منهم كاستقلال الفكر ، وقوة الارادة ، والشجاعة والنجدة ، والجود والايثار ، وحماية الجار . اذ لم يستعبدوا لرؤساء دينيين ولا سياسيين . وما ذكر من العيوب فيهم كوأد البنات لم يكن كله فاشيا فى جميع بلادهم وقبائلهم ، وكان زنا الحرائر نادرا ويعد من أنكر المنكرات

(٢) هذا هو المشهور الذى عليه الناس فى تقاويمهم واحتفالاتهم بذكرى المولد النبوى وهو أحد الأقوال والأصح عند المحدثين أنه ولد فى الليلة التاسعة منه (٣) قيل خمس ، وقيل تسع

ويروى أقل من ذلك . وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبد المطلب . وبعد سنتين من كفالته توفى جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهماً كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان ﷺ من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معاً ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقم على تربيته مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلا ، وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين : أدب إلهى لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصاً مع فقر القوّام ، فاكتهل ﷺ كاملا والقوم ناقصون ، رفيعاً والقوم منحطون ، موحداً وهم وثنيون ، سلماً وهم شاغبون[1] صحيح الاعتقاد وهم واهمون مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون

(١) استشهد المؤلف لهذا فى الدرس بقصة اختلاف القبائل فى وضع الحجر الأسود يوم بناء الكعبة حتى كادوا يتقاتلون ، واتفاقهم على تحكيمه لأمانته والتزامه الحق وما كان من اصلاحه بينهم بما أرضاهم كلهم

من السنن المعروفة أن يتيما فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ولا سيما إن كان من ذوى قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضد اذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، الى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع الى مخالفتهم ، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده(١) ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخلقية ، وما جاء فى الكتاب من قوله (وَوَجَدَكَ ضالًّا فَهَدَى) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ان ذلك لهو الإفك المبين ، وانما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل الى ما هدوا اليه من إنقاذ الهالكين ، وإرشاد الضالين . وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته

---

(١) كأمية بن أبي الصلت وعمرو بن نفيل

وجد شيئاً من المال يسد حاجته « وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه معيشته » بما عمل لخديجة رضي الله عنها في تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجاً لها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له ، وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا . ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول الى ما ترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع الى الفكر والمراقبة ، والتحنث بمناجاة الله تعالى ، والتوسل اليه في طلب المخرج من همه الاعظم في تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذي تولاه — إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه اليه الالهام الالهي [1] وتجلى عليه النور القدسي ، وهبط عليه الوحي من المقام العلي . في تفصيل ليس هذا موضعه

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه . وكانت

---

(١) أي من غير شعور منه . ويظن الباحثون في سيرته (ص) من غير المسلمين كما يظن كثير من المسلمين أنه (ص) كان يستشرف للنبوة ويرجوها ولا سيما في عهد تحنثه في غار حراء . ولكن الله تعالى يقول : (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) أي لكن ألقي إليك رحمة من ربك لم تكن ترجوها ، ويؤيد هذا المعنى خوفه (ص) على نفسه عند ما جاءه ملك الوحي في حراء كما ثبت في حديث الصحيحين

نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفى قناعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان ، دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشى على ديارهم ، جاء الحبشى لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، و بيتهم الحرام ، ومنتجع حجيجهم ، ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين فى مفاخرتهم لبنى قومهم . وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الابل فيها لعبد المطلب مائتا بعير ، وخرج عبد المطلب فى بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته . فقال هى أن ترد الى مائتى بعير أصبتها لى ، فلامه الملك على المطلب الحقير ، وقت الخطب الخطير ، فأجابه : أنا رب الابل وأما البيت فله رب يحميه

هذا غاية ما ينتهى اليه الاستسلام ــ وعبد المطلب فى مكانه من الرياسة على قريش ــ فأين من تلك المكانة محمد ﷺ فى حاله من الفقر ، ومقامه فى الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع ملكا أو يطلب سلطاناً ؟ لا مال لا جاه ، لا جند لا أعوان ، لا سليقة فى الشعر ، لا براعة فى الكتاب ، لا شهرة فى الخطاب ، لا شئ كان عنده مما يكسب المكانة فى نفوس العامة أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة

ما هذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذى أعلى رأسه على

الرءوس ، ما الذى سما بهمته على الهمم ، حتى انتدب لارشـاد الأمم ، وكفالته لهم كشف الغمم . بل واحياء الرمم ؟ .

ما كان ذلك الاما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم الى مقوم لما زاغ من عقائدهم ، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ، ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الالهية تنصره فى عمله ، وتمده فى الانتهاء إلى أمله ، قبل بلوغ أجله . ما هو إلا الوحى الالهى يسعى نوره بين يديه يضىء له السبيل ، ويكفيه مؤنة الدليل ما هو الا الوحى السماوى ، قام لديه مقام القائد والجندى . أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة الى التوحيد ، والاعتقاد بالعلى المجيد ، والكل مابين وثنية مفرقة ، ودهرية وزندقة ؟

نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم ـ وفى المشبهين المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم ـ وفى الثانوية بافراد إله واحد بالتصرف فى الأكوان ورد كل شىء فى الوجود اليه ـ أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم الى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذى قامت به . صاح بذوى الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة ، فى الاستكانة الى سلطان معبود واحد ، هو فاطر السموات والأرض ، والقابض على أرواحهم ، فى هيا كل أجسادهم

تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد و بين ربهم الأعلى ، فبين لهم بالدليل، وكشف لهم بنور الوحى ، أن نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم ، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية ، إلى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل ذى نفس انسانية ، فى الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق فى النسبة اليه ، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة

وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا أغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل ، واقتطعتهم دون الأمل ـ مال على قراء الكتب السماوية ، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الإلهية ، فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدد النكير على المحرفين لها ، الصارفين لألفاظها الى غير ما قصد من وحيها ، اتباعاً لشهواتهم ، ودعاهم الى فهمها ، والتحقق بسر علمها ، حتى يكونوا على نور من ربهم

ولفت كل انسان الى ما أودع فيه من المواهب الإلهية ، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثاً عامة وسادات الى عرفان أنفسهم ، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل ، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما وبحرية

الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة . وأقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد ، الا من خصهم الله بوحيه ، وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع . والحاجة الى أولئك المصطفين إنما هى فى معرفة الصفات التى أذن الله أن تعلم منه ، وليست فى الاعتقاد بوجوده — وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل . ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة

دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين متخالفين ، وان كانا ممتزجين ، وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق

دعا الناس كافة الى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقون فى الحياة الأخرى ، وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله فى العبادة ، والاخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والارشاد

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول له ولا قوة ، كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا و إن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ما جهلوا وان كان رغد العيش وعزة السيادة ، ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لايفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير أمى مثله ، لايرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم ، والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

لكنه فى فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ، و يناضلهم بالدليل و يأخذهم بالنصيحة ، و يزعجهم بالزجر ، و ينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه ، عادل فى أمره و نهيه ، أو أب حكيم فى تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رءوف بهم فى شدته ، رحيم فى سلطته

ما هذه القوة فى ذلك الضعف ؟ ماهذا السلطان فى مظنة العجز ، ماهذا العلم فى تلك الأمية ؟ ماهذا الرشاد فى غمرات الجاهلية ؟ ان هو إلا خطاب الله القادر على كل شىء الذى وسع كل شىء رحمة وعلما ، ذلك أمر الله الصادع ، يقرع الآذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف ،

وينفذ الى القلوب ، على لسان من اختاره لينطق به ، واختصه بذلك وهو أضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهاناً عليه بعيداً عن الظنة ، بريئاً من التهمة ، لاتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

أى برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ أمى قام يدعو الـكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون ، فى ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشىء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء ، غريب فى أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر فى سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها

ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ أأقول ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ؟ لا لا أقول ذلك ، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : إن هو الا بشر مثلكم يوحى اليه ، نبى صدق الأنبياء ولكن لم يأت فى الاقناع برسالته بما يلهى الأبصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر . ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له . واختص العقل بالخطاب ، وحاكم اليه الخطأ والصواب وجعل فى قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة . وآية الحق الذى (لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تتطرق اليه الريبة أن النبى ﷺ كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا ، وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال انه أنزل عليه ، وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين إلى اليوم

كتاب حوى من أخبا الأمم الماضية ، ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة : نقب على الصحيح منها ، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها ، ونبه على وجوه العبرة فيها

حكى عن الأنبياء ماشاء الله أن يقص علينا من سيرهم ، وما كان بينهم و بين أممهم ، و برأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدين برسالاتهم

آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم ، وما خلطوا فى أحكامهم ، وما حرفوا بالتأويل فى كتبهم — وشرع للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعةُ ما كانت عند حد ما قرره ، ثم عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها ، أو البعد بها عن الروح

الذى أودعته ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم

ثم جاء بعد ذلك[1] بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب ، وتهش لاستقبالها العقول ، وتنصرف وراءها الهمم ، انصرافها فى السبيل الأمم[2]

نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب وأغزرها مادة فى الفصاحة ، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب ، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو الغلب فى القول والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقر الاذعان من العقول ، وتفانيهم فى المفاخرة بذلك مما لا يحتاج إلى الإطالة فى بيانه

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى ﷺ والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه ، وتكذيبه فى الإخبار عن الله ، وإتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان

(١) هذه البعدية نوعية لا زمانية أو هى كما قال الشاعر :

قل لمن مات ثم مات أبوه ثم من بعد ذاك قد مات جده

(٢) الأمم بالفتح : القريب .

فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معـاندته ، والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته ، والخطباء والشعراء والـكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته ، وقد اشتد جميـع أولئك فى مقاومته ، وانهالوا بقواهم عليه ، استكباراً عن الخضوع له ، وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم ، وحميـة لعقائدهم وعقائد أسلافهم ، وهو مع ذلك يخطئ آراءهم ، ويسفه أحلامهم ، ويحتقر أصنامهم ، ويدعوهم إلى ما لا تعهده أيامهم ، ولم تخفق لمثـله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدى ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثـل أقصر سورة من ذلك الـكتاب أو بعشر سور من مثـله[1] وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا إليـه من العلماء والفصحاء والبلغاء ما شاءوا ليأتوا بشىء من مثـل ما أتى به ليبطلوا الحجة ، ويفحموا صاحب الدعوة

جاءنا الخـبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدي ، ولجاج القوم فى التعدى ، أصيبوا بالعجز ، ورجعوا بالخيبة ، وحقت للـكتاب العزيز الـكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العلى على جميـع الأحكام . أليس فى ظهور مثل هـذا الـكتاب على لسان أمى أعظم

(١) كان التحدى بعشر سور مثله ردا على الذين قالوا « افتراه » ولذلك وصفها بقوله (مفتريات) وقد بينت حكمة هذا العدد فى تفسير الآية من سورة هود .

معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر ، وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى ، والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمى صلوات الله عليه ؟

هذا وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون كالخبر فى قوله (٣٠ : ٢ غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) وكالوعد الصريح فى قوله (٢٤ : ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية . وقد تحقق جميع ذلك ، وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته

ومن الكلام على الغيب فيه ما جاء فى تحدى العرب به ، واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله ، مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها ، وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع أرجائها . ومع أنه لم يسبق له ﷺ السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها ، وقصور العلم البشرى عادة عن الاحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالأمة العربية ، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشىء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريًا ، ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذى

التزمه وشرط كالذى شرطه على نفسه ، لغلبة الظن عنـد من له شيء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته[(١)] وإنما

(١) يشير الى قوله تعالى (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتو بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ✲ فان لم تفعلوا ـ ولن تفعلوا ـ فاتقوا النار)الخ فالاخبار بالغيب فيه قوله ـ «ولن تفعلوا » وكان هذا بعد التصريح بعجز الانس والجن عن الاتيان بمثله

قد يقال ان بعض دعاة الضلال فى بلاد الفرس والهنـد قد تحدوا مثل هـذا التحدى فى بعض ما كتبوه لاثبات ما ادعوه من الوحى اليهم أو الالوهية لأنفسهم ، ولم نعلم أن أحـدا تصـدى لمعارضتهم . ونقول فى الجواب على تقدير تسليم الدعوى : ان أولئك لم يكونوا أولى شأن يبالى بدعوتهم وتحديهم بل من الموسوسين (كالباب والقاديانى مسيح الهند الدجال) وكان جل ما جاءوا به من ذلك أشبه باللغو منه بكلام العقلاء أو النبيين ، وما كان لعاقل أن يعارض المجانين ، ولا لبليغ أن يحاكى هذيان المحمومين والمصروعين ، ولا يزال يظهر أمثالهم فى تلك البلاد وغيرها ولا يبالى بهم أحد ، ولـكن رزق بعضهم الحظوة فى بلاد أعجمية ، أتوا فيها بسخافات جنوا بها على العربية ، وما ادعاه بعضهم من اعجاز بعض ما كتبه فهو ليس كتحدى الأنبياء ، بل كمبالغة بعض الأدباء والشعراء ، كالشيخ أحمـد فارس الذى قال فى مقدمة كتابه « الساق على الساق » غلوا فى الفخر به

ذلك هو الله المتكلم ، والعليم الخبير هو الناطق على لسانه وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه

= عهد الى ولدى أن يتحديا أسلوبه وبدقتيه يطيفا على أنه يوجد أمثال لتلك الكتب السخيفه ، ولهذه الكتب اللطيفه ، ولو قيل لهم أو لبعض أشياعهم إنها مثلها أو أمثل منها فى بابها لأنكروا ومن ذا الذى يبالى بهم و باقناعهم ، وليس شأن القرآن مع العرب ثم مع سائر الأمم كذلك . واعجازه من وجوه كثيرة فى نفسه وفى كون من جاء به أميا بلغ الأربعين ومن المحال أن يبتكر أحد من البشر فى هذه السن علما لم يستعد له ولم يزاوله وكل من ذكرنا كانوا متعلمين وهو (ص) قد جاء بأقصى الغايات من أعلى العلوم لم يسبق له اكتساب شيء ما من الاستعداد له لا علوم العقائد ولا الشرائع ولا الحكمه العمليه ولا العلميه ولا التاريخ وفلسفته . . . ولا كان ممتازا قبله بالبلاغه فى الشعر والخطابة ولا الجدل ثم جاء هذا الكتاب بالغاية القصوى فى هذه العلوم وتلك معجزات كثيرة غير معجزة بلاغته وأسلوبه البديع وغير ما فيه من أنباء الغيب وكانت الدواعى لمعارضته قوية ، فانه زلزل سلطانهم الدينى والدنيوى حتى قوضه من أساسه ولم يكن لهؤلاء الأدعياء المتأخرين مثل هذا السلطان والتأثير العظيم ، على أن ادهاهم فى الدعاية وهم البهائية يخفون كتابهم الذى سموه الأقدس بدلا من التحدى به ولو أظهروه لافتضحوا به

يقول واهم : ان العجز حجة على من عجز فان العجز هو حجة الافحام وإلزام الخصم ، وقد يلتزم الخصم بعض المسلمات عنده فيفحم ، ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره ، فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه ، فلا يفحمه الدليل ، بل يجد الى إبطاله أقرب سبيل

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان ، إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما عجز ، وشتان بين العجزين ، وبعد ما بين وجهى الاستدلال فيهما ، فان إعجاز القرآن برهن على أمر واقعى وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة ، وقلنا « القوى البشرية » لأنه جاء بلسان عربى ، وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة ، وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا ، وحال القوم فى العناد كما بينا ، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشىء من مبلغ عقولهم . فلا يعقل أن فارسياً أو هندياً أو رومانياً يبلغ من قوة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجز عنه العرب أنفسهم ، وتقاصر القوى جميعها عن ذلك ، مع التماثل بين النبى وبينهم فى النشأة والتربية ، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة ، دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن

البشر ، فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ، ثم ما ورد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم ، والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة ، مما يدل على الثقة من أمره ، على ما سبق تعداده من الأمور التى لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن ، وانفساح الأجل ، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة لا رجل يعظ وينصح على العادة

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ، ولا يتناوله التبديل : أن نبينا محمداً ﷺ رسول الله الى خلقه ، فيجب التصديق برسالته ، والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه ، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة . وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الأنبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك

بقى علينا أن نشير الى وظيفة الدين الاسلامى وما دعا إليه على وجه الاجمال ، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة . والسر فى كون النبى ﷺ خاتم المرسلين ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

الدين الاسلامى او الاسلام

هو الدين الذى جاء به محمد ﷺ وعقله ومن وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم ، وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم ، بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع ، وإنى مجمله فى هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه ، وما سندى فيما أقول إلا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين .

جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحدا متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه شىء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه و بينهم إلا أنه موجدهم وانهم له و إليه راجعون (١١٢ : ١ قل هو الله أحد ٢ الله الصمد ٣ لم يلد ولم يولد ٤ ولم يكن له كفوا أحد) وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا فى شىء منها ، وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين ، و إنما يختص سبحانه من شاء من عباده [1] بما شاء من علم وسلطان

(١) يعنى الأنبياء

على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال ، على سنة له فى ذلك سنها فى علمه الأزلى الذى لا يعتريه التبديل ، ولا يدنو منه التغيير ، وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشىء من ذلك إلا ببرهان ينتهى فى مقدماته الى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه فى الوضوح بل قد تعلوه ، كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معاً ، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا . وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون[١] وأن ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص و بتيسير خاص فى موضع خاص لحكمة خاصة . ولا يعرف شأن الله فى شىء من هذا الا ببرهان كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب (١٦ : ٧٨ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون[٢]) والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة

(١) اشارة الى قوله تعالى (٢١ : ٢٦ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون (٢) قال المؤلف فى الدرس : لعل فى القرآن تعبر دائما عن الاستعداد أى جعل لكم هذه الآلات ليعدكم بها للشكر أو قال ليعدكم بشكرها لتحصيل جميع العلوم بها أى وهذا ماخلقت لأجله بقرينة لاتعلمون شيئا قال والافئدة العقول أين كان محلها سواء أكان الدماغ أو القلب

فيما كان الانعام بها لأجله — دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها

وأما ما تتحير فيه مداركنا ، وتقصر دونه قوانا ، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها . أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه على أنه فوق ما تعرفه من القوى المسخرة لها ، وكان لابد من الخضوع له والرجوع إليه والاستعانة به — فذلك[1] انما يرد الى الله وحده ، فلا يجوز أن تخشع إلا له ، ولا تطمئن إلا اليه . وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة ، لا يسوغ لها أن تلجأ الى أحد غير الله فى قبول أعمالها من الطيبات ، ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات . فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل ، أو العبارة واللفظ ، لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة — تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التى لا تنفك

(١) قوله فذلك الخ الجملة خبر قوله وأما ما تتحير الخ وحاصل المعنى أن الشعور بوجود قوة غيبية فى الكون هو مما أودع فى غرائز البشر ولكن هذه القوة هى لله وحده فلا يجوز أن يتوجه أحد الى غيره فيما هو غير معتاد من الاسباب المشتركة بين البشر ولو كان نبيا أو وليا

عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام ، وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم[١] وارتفع شأن الانسان ، وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة ، بحيث أصبح لايخضع لأحد الا لخالق السموات والأرض ، وقاهر الناس أجمعين . وأبيح[٢] لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال ابراهيم (٦ : ٧٩ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) وكما أمر رسول الله ﷺ أن يقول (٦ : ١٦٢ ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى[٣] لله رب العالمين (١٦٣) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)

تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت إرادته من

---

(١) ذكر المؤلف فى الدرس هنا مفاسد المنتسبين الى طرق الصوفية واختلافهم فليتذكر من يعلم (٢) عبر بأبيح للاشارة الى أن ذلك كان محظورا عند الامم السابقة فلم يكن يباح لأحد أن يتوجه الى الله بدون واسطة الرئيس الدينى فيكونوا حنفاء . والحنيف المائل عن الباطل الى الحق الملتزم له . فمن يتوجه الى غير الله ليقربه الى الله فليس بحنيف (٣) أى ان صلاتى وجميع عبادتى وحياتى وشئونها ومماتى وما بعده كل ذلك لله وحده لا أتوجه فيه الى مرضاة غيره ولا أستعين احدا على شىء منه استعانة معنوية بل إياه أستعين ، مهتديا بما شرعه من الدين

القيود التي كانت تعقدها بإرادة غيره ، سواء كانت ارادة بشرية[(١)] ظن أنهـا شعبة من الارادة الالٰهية ـ أو انها هي ـ كارادة الرؤساء والمسيطرين ، أو إرادة موهومة اخترعها الخيـال كما يظن في القبور والأحجار والأشجار والـكواكب ونحوها . وافتـكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء ، والمتـكهنة والعرفاء ، وزعماء السيطرة على الأسرار ، ومنتحلي حق الولاية على أعمـال العبد فيما بينه و بين الله ، الزاعمين انهم واسطة النجاة ، و بأيديهم الاشقاء والاسعاد ، و بالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين

صار الانسان بالتوحيد عبداً لله خاصة حراً من العبودية لـكل ما سواه ، فـكان له من الحق ماللحر على الحر ، لاعليّ في الحق ولا وضيع ، ولا سافل ولا رفيع ، ولا تفاوت بين النـاس إلا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم ، ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم ، وخلوص العمل من العوج والرياء ، ثم بهـذا خلصت أموال الـكاسبين ، وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة ، وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة ، ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته

---

(١) قال المؤلف كارادة القديسين والـكهنة الذين يأتي ذكرهم مرتبا

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت (٩٩ : ٧ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٨) ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (٥٣ : ٣٩ وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضارا بنفسه أو بمن يدخل فى ولايته ، أو ما تعدى ضرره إلى غيره ، وحدد له فى ذلك الحدود العامة ، بما ينطبق على مصالح البشر كافة ، فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله ، واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعدلها عقبة تتعثر بها ، اللهم إلا حقا محترما تصطدم به

أنحى الاسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم (*)

(*) ذكر المؤلف منها فى الدرس ثلاثا : ١ ـ احترام المرء لآبائه ومربيه ٢ ـ اعتقاد عظمة سلفه من رجال الدين ٣ ـ الحذر من انكار الناس المحتفين به واعتراضهم عليه اذا حاول أن يخرج عما هم عليه ، أى فمن لم يحترم نفسه واستقلال فكره ويمرن نفسه على الاخذ بما يعتقد أنه الحق وان خالف الآباء والمعلمين والاحياء والاموات غير المعصومين من الخطأ فلا يمكنه أن ينطلق من قيود التقليد وسيأتى فى كلامه ما يهدم تلك القواعد والاركان

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها . كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق ، خلصت اليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم « نم فان الليل حالك ، والطريق وعرة والغاية بعيدة ، والراحة كليلة ، والأزواد قليلة »

علا صوت الاسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام ، — أعلام الكون ودلائل الحوادث — وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طريق البحث هادون

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم (٣٩ : ١٨ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ، ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ،

ونبه على أن السبق فى الزمان ، ليس آية من آيات العرفان ، ولا مسمياً لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان ، وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ، مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه . وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم (٦ : ١١ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ، ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم، وقولهم (٣١ : ٢١ بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ٤٣ : ٢٢ إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون)

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، ورده الى مملكته ، يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع فى ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ، ولاحد للعمل فى منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما ، وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر . وبهما كملت له انسانيته ، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها . وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم : ان نشأة المدينة فى أوربا انما قامت على هذين الأصلين فلم تنهض النفوس للعمل ، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر ، الا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم ، وأن لهم حقاً فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ، ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان إلا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح . وقرر ذلك الحكيم أنه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ، ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان

رفع الاسلام بكتابه المنزل ماكان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية ، استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم ، وضناً به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة . ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعاً من تلك الكتب لكن على شريطة أن لايفهموها وأن لا يطيلوا أنظارهم الى ما ترمى اليه . ثم

غالوا فى ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم إلا قليلا ، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء فى الشرائع والنبوات ، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبداً بالأصوات والحروف[1] فذهبوا بحكمة الارسال ، فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال (٢ : ٧٨ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون * ٦٢ : ٥ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين)

أما الأمانىّ ففسرت بالقراءات والتلاوات أى لا يعلمون منه إلا أن يتلوه ، وإذا ظنوا أنهم على شىء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه ، وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً . وإذا عنّ لأحدهم أن يبين شيئاً من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة ، واعتسف فى التأويل وقال هذا

(١) أى ووقفوا بأنفسهم كما وقفوا بالناس المقلدين لهم عند ألفاظ الكتاب دون معانيه ومقاصده ، وكذلك فعل الذين اتبعوا سنتهم من المسلمين مصداقا لما أنبأ به الرسول (ص) وأما تعبدنا بالقرآن فهو لاجل تدبره والاهتداء به ثم لأجل حفظه وتبليغه فهما مقصدان

من عند الله (٢ : ٧٩ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا) وأما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة وهى بين أيديهم بعد ما حملوها[١] فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ ، ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام ، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها ، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بازالها فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به : مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب ، وقصم الظهر وانبهار النفس وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال ، فما كان سبباً فى إسعادهم وهو التنزيل والشريعة ، أصبح سبباً فى شقائهم بالجهل والغباوة .

وبهذا التقريع ونحوه ، وبالدعوة العامة إلى الفهم، وتمحيص الألباب للتفقه واليقين ـ مما هو منتشر فى القرآن العزيز ـ فرض الاسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه وما قرر من شرعه ، وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد ما لا بد منه للفهم ، وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المتدينين ،

---

(١) حملوها بضم الحاء وتشديد الميم : كلفوا حملها وذلك قوله تعالى لموسى كما حكاه فى القرآن (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها)

لا تخص به طبقة من الطبقات ، ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات .

جاء الإسلام والناس شيع فى الدين ، وان كانوا ـ الا قليلا ـ فى جانب[1] عن اليقين ، يتنابذون ويتلاعنون ، ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون ، فرقة وتخالف وشغب ، يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب . أنكر الاسلام ذلك كله وصرح تصريحاً لا يحتمل الريبة بأن دين الله فى جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد قال الله تعالى (٣ : ١٩ إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ٣ : ٦٧ ما كان ابراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ٤٢ : ١٣ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ٣ : ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وكثير من ذلك يطول إيراده فى هذه الوريقات . والآية الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا إليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم

(١) أى بمعزل ، وقد تكرر هذا الاستعمال فى كلامه

ما اختلفوا فيه ـ معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته

نص الكتاب على أن دين الله فى جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية ، والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر[1] وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنه كتبه التى أنزلها على المصطفين من رسله ، ودعا العقول إلى فهمه منه ، والعزائم الى العمل به ، وأن هذا المعنى من الدين هو الأصل الذى يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف ، وهو الميزان الذى توزن به الأقوال عند التناصف . وان اللجاج والمراء فى الجدل فراق مع الدين و بعد عن سنته ، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الإلهية فى الانعام على البشر به ، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها ، وسار الكافة فى مراشدهم إخواناً بالحق مستمسكين ، وعلى نصرته متعاونين

(١) قوله مما هو الخ صفة لما أمر به ونهى عنه كاشفة لامفهوم لها والسياق استئناف لبيان وحدة الدين المجملة فيما قبله فصل فيه ما اتحد فيه الدين من أصول ومقاصد ، ثم ما اختلف فيه من شرائع ومناهج ، المنصوص فى قوله تعالى (٥ : ٤٨ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) مع الالمام بحكمة ذلك ، وهو من الحقائق التى لم يسبقه اليها سابق

وأما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها ، واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها ، فمصدره رحمة الله ورأفته فى إبقاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان . وكما جرت سنته ـ وهو رب العالمين ـ بالتدريج فى تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، الى راشد فى عقله ، كامل فى نشأته ، يمزق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه فى تربية الأمم ، فلم يكن من شأن الإنسان فى جملته ونوعه أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله إلى يوم يبلغ من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته فى النمو قائماً على ما قررته الفطرة الإلهية فى شأن أفراده ، وهذا من البديهيات التى لا يصح الاختلاف فيها ، وان اختلف أهل النظر فى بيان ماتفرع منه فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة فلا نطيل الكلام فيه هاهنا

(ترقى الأديان بترقى الانسان ، وكمالهـا بالاسلام*)

جاءت أديان والنـاس من فهم مصالحهم العـامة بل والخاصة فى طور أشبه بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه ، و يصعب عليـه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن يتناول بذهنه من المعـانى مالا يقرب من لمسه ، ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيرته أو ابن جنسه ، فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه ، فى هم شاغل عما يلقى إليه فيما يصله بغيره ، اللهم إلا يداً تصل الى فمه بطعام ، أو تسنده فى قعود أو قيام ، فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بمـا يلطف فى الوجدان ، أو يرقى إليه يسلم البرهان ، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سـير الوالد مع ولده فى سذاجة السن ، لا يأتيه الا من قبـل ما يحسه بسمعه أو ببصره ،

(*) العنوان للناشر وهو لتنبيه ذهن القارئ فان الموضوع من أهم حكم الدين وحجة علمية اجتماعية على نسخ الاسلام لمـا قبله من الشرائع وعلى كونه الدين الاخير الذى لايحتاج البشر الى الانبياء والوحى السماوى بعده ، وقد اشتدت الحاجة الى بيان ذلك فى هـذا العصر ، ولم يسبق الاستاذ الامام اليه أحد فيما نعلم

فأخذتهم بالأوامر الصادعة ، والزواجر الرادعة . وطالبتهم بالطاعة ، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة ، كلفتهم بمعقول المعنى جلى الغاية وان لم يفهموا معناه ، ولم تصل مداركهم الى مرماه ، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم ، وتنفعل به مشاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه[(١)]

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الأقوام وسقطت ، وارتفعت وانحطت ، وجربت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وذاقت من الأيام آلاما ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياماً وأياماً ، ووجدت الأنفس بنفث الحوادث . ولقن الكوارث ، شعوراً أدق من الحس وأدخل فى الوجدان ، لا يرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء دين يخاطب العواطف . ويناجى المراحم ، ويستعطف الأهواء ، ويحادث خطرات القلوب ، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى ، ويقتضى من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء فى وجوه الأغنياء ، وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف ، وسن للناس سنناً فى عبادة الله تتفق مع

---

(١) هذه صفة ديانات آخرها الديانة الموسوية ، ومايليها فهو صفة المسيحية

ما كانوا عليه ، وما دعاهم اليه . فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها ، وداوى من أمراضها ، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله ، ووقر فى الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال ، فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ، ومزاحمة أهل الترف فى جمع الأموال ، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل .

هذا كان شأنهم فى السجايا والأعمال : نسوا طهارته ، وباعوا نزاهته ، أما فى العقائد فتفرقوا شيعاً ، وأحدثوا بدعاً ، ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها ، وتوهموه من أقوى دعائمها ، وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفى غيره من دقائق الأكوان ، والحظر على الأفكار أن تنفذ الى شيء من سرائر الخلقة ، فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل ، وأن الدين من أشد أعداء العلم ، ولم يكف الذاهب الى ذلك أن يأخذ به نفسه ، بل جد فى حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة ، وأفضى الغلو فى ذلك بالأنفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانسانى ، وهى نزعة الحرب بين أهل الدين ، للالزام ببعض قضايا الدين ، فتقوض الأصل وتخرمت

العلائق بين الأهل ، وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان التعاون والحرب محل السلام وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام

* * *

كانت سن الاجتماع البشرى قد بلغت[١] بالانسان أشده ، وأعدته الحوادث الماضية الى رشده ، فجاء الاسلام يخاطب العقل ، ويستصرخ الفهم واللب ، ويشركه مع العواطف والاحساس فى إرشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والأخروية ، وبين للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين الله فى جميع الأجيال واحد ، ومشيئته فى اصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وان رسم العبادة على الأشباح ، انما هو لتجديد الذكرى فى الأرواح ، وان الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب ، وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه باصلاح سره ، ففرض نظافة الظاهر ، كما أوجب طهارة الباطن ، وعد كلا الأمرين طهراً مطلوباً ، وجعل روح العبادة الاخلاص ، وان ما فرض من

(١) ذكر الأستاذ الامام ضمير السن هنا وفى تفسير جزء عم سهوا ثم إنه تنبه لكون السن مؤنثة فأمر بتصحيحها فى جزء عم بعد طبعه ونسى تصحيحها هنا فصححناها اتباعا لتصحيحه هناك وان كان التأنيث مجازيا

الأعمال ، انما هو لما أوجب من التحلى بمكارم الأخلاق (٢٩ : ٤٥ ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر * ٧٠ : ١٩ ان الانسان خُلق هلوعا ٢٠ اذا مسه الشر جزوعا ٢١ واذا مسه الخير منوعا ٢٢ الا المصلين) ورفع الغنى الشاكر ، الى مرتبة الفقير الصابر ، بل ربما فضله عليه ، وعامل الانسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد ، فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة ، وصرح بما لا يقبل التأويل ان فى ذلك رضاء الله وشكر نعمته ، وان الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا وصول الى خير العقبى ، الا بالسعى فى صلاح الدنيا

التفت الى أهل العناد فقال لهم (٢ : ١١١ و ٢٧ : ٦٤ قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ، ونص على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين ، ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل ، فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، وسوغ مؤاكلتهم ، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن

ومن المعلوم أن المجانسة هى رسول المحبة وعقد الألفة ، والمصاهرة

انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين والارتباط بينهما بروابط الائتلاف . وأقل ما فيها محبة الرجل لزوجته وهى على غير دينه ، قال تعالى (٣٠ : ٢١ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم . ونص على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيداً يقدمونه من مالهم ، ونهى بعد أداء الجزية(*) عن كل إكراه فى الدين ، وطيب قلوب المؤمنين فى قوله (٥ : ١٠٥ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هى أحسن ، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب

(*) فيه أن النهى عن الاكراه فى الدين نزل قبل سورة براءة التى شرع فيها أخذ الجزية فالاكراه فى الدين ممنوع فى الاسلام مطلقا ولكن اذا أراد المسلمون محاربة قوم من الكافرين لتعديهم عليهم أو تهديدهم لدعوتهم مثلا وجب عليهم أن يدعوهم أولا الى الاسلام بالاختيار فان أسلموا حرم قتالهم ، وان لم يسلموا دعوهم الى أداء الجزية ان كانوا من أهلها كأنهم يقولون لهم إنكم ألجأتمونا الى حربكم فنحن نقدم عليها الا أن تسلموا أو تؤدوا الجزية ، وهذا لا يمنع من الصلح اذا اتفق عليه الفريقان

القوة فى الحمل على الاسلام ، فان نوره جدير أن يخترق القلوب . وليست الآية فى الأمر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام به ـ كل ذلك ليرشد الناس الى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ، ولكن ليهديهم الى الخير فى جميع نواحيه

رفع الاسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية ، وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله فى الخلقة ، وشرف اندراجها فى النوع الانسانى فى الجنس والفصل والخاصة . وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها ، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم ، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم(١) فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم ، وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحاً

هذه عبادات الاسلام على ما فى الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الأشباه ، وتلتئم مع المعروف

(١) هذا الامتياز لايزال يدعيه أكثرهم ولاسيما الافرنج وأفحشه كون الهندوس ٣ طبقات الطبقة السفلى تعد رجسا عند من فوقها لاتشاركها فى اجتماع ولا عبادة ولا مخالطة

عنـد العقول السليمة ـ فالصلاة ركوع وسجود ، وحركة وسكون ، ودعاء وتضرع ، وتسبيح وتعظيم ، وكلهـا تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهى الذى يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول ، فتخشع له القلوب ، وتستخذى له النفوس ، وليس فيهـا شيء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات ، أو رمى الجمرات ، على أنه ممـا يسهل التسليم فيــه لحكمة العليم الخبير[1] وليس فيــه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير .

وأما الصوم[2] فحرمان يعظم به أمر الله فى النفس وتعرف

---

(١) شبه الغزالى ذلك باختـلاف مقادير الدواء المركب من أجزاء مختلفة بعضها كثير وبعضها قليل وكون هـذا التفاوت فى القلة والكثرة يفوض إلى علم الطبيب الذى وصف الدواء ، وأن المريض يكفيه الثقة بعلمه والانتفاع بدوائه . فاذا قال بعـد ذلك أنا لا أقبل منه الدواء إلا بعد أن أعلم فائدة كل جزء منـه وفائدة مقداره ـ كان أحمق ومات بدائه ، وأن ثقة المؤمن بعلم الله وحكمته أقوى وأكمل من كل ثقة بغيره من طبيب وصيدلى وسواهما . وزاد على ذلك ثبوت فائدة الصلاة والحج وسائر العبادات فى تطهير النفس من الشرور ونهيها عن الفحشاء والمنكر .

(٢) كان ينبغى أن يوضع هنا حكمة الزكاة ولكنه أخرها إلى مناسبة أخرى وستأتى فى ص ١٨٠

به مقادير النعم عنـد فقدها ، ومكانة الاحسان الالهى فى التفضل بها (٢ : ١٨٤ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون[١])

وأما أعمال الحج فتذكير للانسان بأوليات حاجاته ، وتعهـد له بتمثيل المساواة بين أفراده ـ ولو فى العمر مرة ـ يرتفع فيهـا الامتياز بين الغنى والفقير ، والصعلوك والأمير ، ويظهر الجميع فى معرض واحـد مكشوفى الرءوس متجردين عن المخيط ، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين ، كل ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليـه السلام وهو أبو الدين ، واستقرار يقينهم على أن لا شىء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع . وهذا الاذعان الكريم فى كل عمل من أعمال العبادات الاسلامية مقرون بما يدل على التنزيه ، وتقديس الله عما يوهم التشبيه[١]

(١) راجع تفسيرها وقول المؤلف فيها فى ص ١٥٧ ج ٢ من تفسير المنار طبعة أولى و ١٤٤ طبعة ثانية .

(٢) عبارة الرسالة الأولى هنا « وشعار هذا الاذعان الكريم فى كل عمل « الله أكبر » وكان المؤلف صحح العبارة فى حاشية نسخة الدرس هكذا » وهم مع هذا الاذعان الكريم فى كل عمل مقرون بما ينزه الله عن التشبيه والتجسيم » ثم صححها ثالثة فى الجدول بما أثبتناه هنا .

أين هذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين ، يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير « العالم » والكون الصغير « الانسان » فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم إنما يجرى أمرها على السنن الإلهية[١] التى قدرها فى علمه الأزلى لا يغيرها شىء من الطوارىء الجزئية ، غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها ، بل ينبغى أن يحيا ذكره عند رؤيتها ، فقد جاء على لسان النبى ﷺ « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله حتى ينجلى » وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها

ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم ، التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التى يرزءون بها ، ففصل بين

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى (٣ : ١٨٢ قد خلت من قبلكم سنن) وما قاله المؤلف فى تفسيرها فى الجزء السادس من المجلد الحادى عشر من المنار أو فى ص ١٣٨ من جزء التفسير الرابع

الأمرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما . فأما النعم التى يمتع الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة ، والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه ، فكثير منها كالثروة والجاه ، والقوة والبنين ، أو الفقر والضعة ، والضعف والفقد ، ربما يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج ، أو طاعة وعصيان ، وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظاراً لهم ، حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم فى الحياة الأخرى ، وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم فى التسليم بقولهم (٢ : ١٥٦ إنا لله وإنا إليه راجعون) فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ، ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل ، مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ، ولا فى تلك النعم الخاصة ، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة ، كارتباط الفقر بالاسراف والذل بالجبن وضياع السلطان بالظلم ، وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب ، والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر ، وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر

وأما شأن الأمم فليس على ذلك ، فإن الروح الذى أودعه الله

جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول الى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ، والتعاون على البر ، والتناصح فى الخير والشر . وغير ذلك من أصول الفضائل — ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة (٣ : ١٤٥ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها[١]) ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها : يزيد الله النعم بقوته ، وينقصها بضعفه ، حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره ، واستبدل الله عزة القوم بالذل[٢] وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون (١٧ : ١٦ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجئوا الى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر ، والصبر

(١) راجع تفسير المؤلف لهذه الآية فى الجزء الرابع من تفسير المنار
(٢) الصواب فى استعمال الاستبدال والتبدل أن تقرن الباء بالمبدل منه

والشكر (١٣ : ١٣ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (٣٣ : ٦٣ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه « اللهم انه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يرفع إلا بتوبة »

على هذه السنن جرى سلف الأمة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ، كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ، ماض فى غلوائه ، وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئاً[1]

حث القرآن على التعليم وارشاد العامة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال (٩ : ١٢٤ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) ثم فرض ذلك فى قوله (٣ : ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ١٠٥ ولا تكونوا

---

(١) يعنى ان المسلمين لما كانوا فى القرون الاولى يجرون على سنن الله تعالى فى أسباب السيادة والقوة كان بعض الشعوب كالنصارى مغرورين بدينهم يظنون أنهم ينالون كل شيء وتخرق لهم العوائد ببركة القديسين ودعائهم ، ثم انقلبت الحال كما ترى

كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ١٠٦ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم : أكفرتم بعد ايمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ١٠٧ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ١٠٨ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين ١٠٩ ولله ما فى السموات وما فى الأرض والى الله ترجع الأمور)

ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرّطين ، وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين ، أبرز حال الأمّارين بالمعروف النهّائين عن المنكر فى أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال (٣ : ١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله[١]) فقدم ذكر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الايمان فى هذه الآية مع أن الايمان هو الأصل الذى تقوم عليه أعمال البر ، والدوحة التى تتفرع عنها أفنان الخير ، تشريفاً لتلك الفريضة واعلاء لمنزلتها بين الفرائض ، بل تنبيهاً على أنها حفاظ الايمان وملاك أمره ، ثم شد بالانكار على قوم أغفلوها ، وأهل دين أهملوها ،

(١) راجع تفسير هذه الآية والآيات التى بعدها وما قاله المؤلف فيها فى الجزء الرابع من تفسير المنار

فقال (٥ : ٧٨ لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ٧٩ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) فقذف عليهم اللعنة وهى أشد ماعنون الله به على مقته وغضبه[1]

* * *

فرض الاسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقاً معلوماً يفيض به الغنى على الفقير ، سداً لحاجة المعدم ، وتفريجاً لكربة الغارم ، وتحريراً لرقاب المستعبدين ، وتيسيراً لأبناء السبيل ، ولم يحث على شىء حثه على الانفاق من الأموال فى سبيل الخير ، وكثيراً ما جعله عنوان الايمان ، ودليل الاهتداء الى الصراط المستقيم ، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ، ومحص صدورهم من الاحقاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين ، فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين . وأى دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا ؟ (٥٧ : ٢٢ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

أغلق الاسلام بابى الشر ، وسد ينبوعى فساد العقل والمال

(١) راجع تفسيرها فى جزء التفسير السادس

بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريماً باتاً لا هوادة فيه

لم يدع الاسـلام بعد ما قررنا أصلا من أصول الفضائل الا أتى عليه ، ولا أمًّا من أمهات الصالحات الا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام الا قررها ، فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر ، واستقلال العقل فى النظر ، وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع ، وما فيه انهاض العزائم الى العمل ، وسوقها فى سبل السعى ، ومن يتل القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد ، وذخيرة لا تفنى

هل بعد الرشد وصاية ؟ و بعد اكتمال العقل ولاية ؟ كلا قد تبين الرشد من الغى ، ولم يبق الا اتباع الهدى ، والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين

لهـذا ختمت النبوات بنبوة محمد ﷺ وانتهت الرسـالات برسالته ، كما صرح بذلك الـكتاب وأيدته السنة الصحيحة ، و برهنت عليه خيبة مدعيها من بعده ، واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بهـا أنه يحدث عن الله بشرع ، أو يصدع عن وحيـه بأمر ، هكذا يصـدق نبأ الغيب (٣٣ : ٤١ ما كان محمـد أبا أحد من رجالـكم ولـكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما)

انتشار الاسلام

﴿ بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ ﴾

كانت حاجة الأمم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك لـكن يدهش عقل الناظر فى أحوال البشر عندما يرى أن هـذا الدين يجمع اليه الأمة العربية من أدناها الى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ، ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد ، وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الأديان ، ولذلك ضل الـكثير فى بيان السبب ، واهتدى اليـه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هـذا الدين بالدعوة كغيره من الأديان ، ولقى من أعداء أنفسهم أشـد ما يلقى حق من باطل : أوذى الداعى ﷺ بضروب الايذاء وأقيم فى وجهـه ما كان يصعب تذليـله من العقاب لولا عنـاية الله ، وعذب المستجيبون له ، وحرموا الرزق ، وطردوا من الدار وسفـكت منهم دماء غزيرة ، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصـبر ، يثبت الله بمشهدها المستيقنين ، ويقذف بهـا الرعب فى أنفس المرتابين ، فـكانت تسيل لمنظرها نفوس أهـل الريب وهى ذوب ما فسد من طباعهم ، فتجرى من

مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الأطباء الحاذقين ، (٨ : ٣٩ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون)

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ، ويخنقوا دعوته ، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء ، والفقير للأغنياء ، ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل ، والرشد فى ظلمات الأضاليل ، حتى ظفر بالعزة ، وتعزز بالمنعة ، وقد وطئ أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها ، وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان ، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحاً ، ولا أنالهم القهر فلاحا

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم ، وكان النبى ﷺ قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربيه من ملوك الفرس والرومان ، فهزءوا وامتنعوا ، وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة ، وضيقوا على المتاجر ، فغزاهم بنفسه . وبعث اليهم البعوث فى حياته ، وجرى على سنته الأئمة من صحابته ، طلباً للأمن وإبلاغاً للدعوة ، فاندفعوا

فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم ، وانهالوا به على تلك الأمم فى قوتها ومنعتها ، وكثرة عددها ، واستكمال أهبها وعددها ، فظفروا منها بما هو معلوم . وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين ، وأباحوا لهم البقاء على أديانهم واقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءاً قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة

كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها ، يلجون على الناس بيوتهم و يغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم الغلبة وحجتهم القوة ، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ، ولم يعهد فى تاريخ فتوح الاسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره ، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة ، وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا واحسانا عندما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفاً

رفع الاسلام ما ثقل من الاتاوات ، ورد الأموال المسلوبة الى

أربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها ، ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم

بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل اسلام من داخل فيه الا بين يدى قاض شرعى باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة فى دنيا(١)

وصل الأمر فى عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس فى دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة ، ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز بتعزير مثل أولئك العمال(٢)

عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمان ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الأعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى أسبانيا

اشتهرت حرية الأديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوربا

(١) لقد كان هذا فى الدولة العثمانية والاقطار الخاضعة لسيادتها كمصر بنفوذ دول الافرنج فيها وهو مخالف للشريعة الاسلامية ومخل بشرف الدولة (٢) شكا اليه عامله بمصر ذلك فأجابه : ان محمدا (ص) بعث هاديا ، ولم يبعث جابيا . و ياله من جواب ممن آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب

فراراً منها بدينهم الى بلاد الأندلس وغيرها

هـذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا الى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم ، وتركوا الخيـار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا لاكراههم عليـه شيئاً من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليـه ـ فما الذى أقبـل بأهل الأديان المختلفة على الاسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجاً وبذلوا فى خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم ؟

ظهور الاسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الأخـلاق وقبائح الأعمـال وسيره بسكانها على الجادة القويمة ـ حقق لقراء الكتب الالهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيـل وتحقيق استجابة دعاء الخليـل (٢ : ١٢٩ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وان هـذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدها[١]

(١) تراجع هذه البشارات فى تفسير قوله تعالى (٧:١٥٧ الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل) فى الجزء التاسع من تفسير المنار

فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد فى مجاحدته فتلقوه شاكرين ، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين

أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه ، فوجدوا لطفاً ورحمة ، وخيراً ونعمة ، لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق ، رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت ، يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الأعلى ، ويدعوها الى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ، ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة ، فاذا نزت شهوة أو غلب هو كان الغفران الالٰهى ينتظره متى حسنت التوبة ، وكملت الأوبة

تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرؤا القرآن ونظروا فى سيرة الطاهرين من حامليه اليهم ، وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل الى فهمه وما تكفى جوالة نظر فى الوصول الى علمه(*) فتراموا اليه خفافاً من ثقل ما كانوا عليه

(*) الأول كالجمع بين التثليث والتوحيد والثانى عالم الغيب غير المحال

كانت الأمم تطلب عقلا فى دين فوافاها ، وتتطلع الى عدل فى ايمان فأتاها ، فما الذى يحجم بهـا عن المسارعة الى طلبتها ، والمبـادرة الى رغيبتها ؟ كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقـات على بعض بغير حق ، وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشئون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين ، فجاء دين يحدد الحقوق ، ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمـال ، ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير، وما كان يريده لنفسه ولـكن ليوسع به مسجداً ، فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته ، رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الأمير على ما كان منه[1] عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى وهو من نعلم من هو ، ويستوقفه معه للتقاضى الى أن قضى الحق بينهما

هذا وما سبق بيانه ممـا جاء به الاسلام هو الذى حببه إلى من كانوا أعداءه ، ورد اليـه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأوليـاءه

(١) وقع هذا لامرأة قبطية مع أمير مصر وفاتحها عمرو بن العاص والخليفة الذى أشكاها منه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض)

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم إلا بعد أن يحرجهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها من سواهم ، ثم لا يكون إلا طائفاً يحل ثم يرتحل ، فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفته من اللين والمياسرة ، ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم و بغير علم ، لم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد ، خصوصاً فى الصين وفى أفريقيا ، ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع إلى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه : لا سيف وراءها ، ولا داعى أمامها ، وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه ، مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه

ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامى واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله ، و يسر أحكامه وعدالة شريعته ، و بالجملة لأن فطر البشر تطلب دينا وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها ، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها ، وأدعى الى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة ، ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذاً ، والى العقول مخلصاً ، بدون حاجة الى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة ، والأوقات الطويلة ، و يستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه

هذا كان حال الاسلام فى سذاجته الأولى ، وطهارته التى أنشأه الله عليها ، ولا يزال على جانب عظيم منهـا فى بعض أطراف الأرض إلى اليوم

* * *

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه : ان الاسلام لم يطف على قلوب العـالم بهذه السرعة إلا بالسيف ، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالأخرى ، يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه و بين حياته

سبحانك هـــذا بهتان عظيم ! ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الأخبار تواتراً صحيحاً لا يقبل الريبة فى جملته ، و إن وقع اختلاف فى تفصيله ، و إنمـا شهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم ، وكفًّا للعدوان عنهم ، ثم كان الافتتاح بعــد ذلك من ضرورة الملك ، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم وأجاروهم ، فـكان الجوار طريق العـلم بالاسلام ، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه

لوكان السيف ينشر دينـا[1] فقد عمل فى الرقاب للاكراه على

(١) هذا بيان لما فعله الافرنج من نشر النصرانية بالاكراه وقهر القوة العسكرية قبل الاسلام و بعده وهو الذى اتهموا به المسلمين من بعــد زورا وبهتانا

الدين والالزام به ، مهدداً كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة ، مع كثرة الجيوش ووفرة العدد ، وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها ، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة ، واستمر فى شدته بعد مجىء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام فى أقل من قرن ، هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته ، مع غيرة تفيض من الأفئدة ، وفصاحة تتدفق عن الألسنة ، وأموال تخلب ألباب المستضعفين ، إن فى ذلك لآيات للمستيقنين

* * *

جلت حكمة الله فى أمر هذا الدين : سلسبيل حياة نبع فى القفار العربيـة ، أبعد بلاد الله عن المدنية ، فاض حتى شمَلها فجمع شمْلها فأحياها حياة شعبية ملية ، علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها ، وتعلو أهل الأرض بمدنيتها ، زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها ، قالوا كان لا يخلو من غلب (بالتحريك) قلنا تلك سنة الله فى الخلق : لا تزال المصارعة بين الحق والباطل ، والرشد والغى ، قائمة فى هذا العالم الى أن يقضى الله قضاءه فيه . اذا ساق الله ربيعاً الى أرض

جدبة ليحيي ميتتها ، وينقع غلتها ، وينمى الخصب فيهـا ، أفينقص من قدره ان أتى فى طريقه على عقبة فعـلاها ، أو بيت رفيع العماد فهوى به ؟

سطع الاسلام على الديار التى بلغها أهله(١) فلم يكن بين أهل تلك الديار و بينه الا أن يسمعوا كلام الله و يفقهوه ، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً ، فوقف وقفة القائد خذله الأنصار ، وكاد يتزحزح الى ما وراءه ، لـكن الله بالغ أمره ، فانحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنـكيز خان وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل ، وكانوا وثنيين ، جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ، ولم يلبث أعقابهم أن اتخـذوا الاسلام ديناً . وحملوه الى أقوامهم فعمهم منه ما عم غيرهم : جاءوا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة(٢) لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها ، واستمرت المجالدات بين الغربيين

---

(١) بيان لما فعله الاسلام من هداية شعوب الأعاجم فى أثر بيان ما فعله فى العرب

(٢) بيان للحروب الصليبية لابادة الاسلام من الشرق و ينبغى لـكل مسلم أن يعرف تفصيلها وما استفاده الاوربيون من فضائل الاسلام التى حملتهم على إصلاح أمور دينهم ودنياهم ، وأكثر المسلمين يجهلون هذا

والشرقيين أكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم ، وزحفوا الى ديار المسلمين ، وكانت فيهم بقية من روح الدين ، فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة بإجلائهم عنها

لِمَ جاءوا وبماذا رجعوا ؟ ظفر رؤساء الدين فى الغرب بإثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاءون من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لأنفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية ، جاء من الملوك والأمراء وذوى الثروة وعلية الناس جم غفير ، وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدروه بالملايين ، استقر المقام بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين ، وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول إلى سكينتها . تنظر فى أحوال المجاورين ، وتلتقط من أفكار المخالطين ، وتنفعل بما ترى وما تسمع ، فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الأحلام ، وجسمت الآلام ، لم تصب مستقر الحقيقة ، ثم وجدت حرية فى دين ، وعلماً وشرعاً وصنعة مع كمال فى يقين ، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادى عليه ، ثم جمعت من الآداب ما شاء الله وانطلقت الى

بلادها قريرة العين مما غنمته من جلادها ، هـذا الى ما كسبه السفّار من أطراف الممالك الى بلاد الأندلس بمخالطة حكمائهـا وأدبائهـا ، ثم عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا ، وأخذت الأفـكار ذلك العهد تتراسل والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ، ونزعت العزائم الى تقييدسلطان زعماءالدين، والأخـذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيـه وصاياه ، وحرفوا فى معناه ، ولم يكن بعد ذلك إلا قليـل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته وجاءت فى إصلاحها بمـا لا يبعد عن الاسلام الا قليـلا ، بل ذهب بعض طوائف الإصلاح فى العقائد(١) الى ما يتفق مع عقيدة الاسـلام الا فى التصديق برسالة محمد ﷺ وان ما هم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسماً ولا يختلف معنى الا فى صورة العبادة لا غير

ثم أخذت أمم أوربا تفتك من أسرها ، وتصلح من شئونهـا ، حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا إليـه الاسلام ، غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت أصول المدنية الحاضرة ، التى تفاخر بها الأجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الأزمان الغابرة

هـذا طل من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت

(١) هم طائفة الموحدين وأكثرهم من الانـكليز والاميركان

من كل زوج بهيج ، جاء القوم ليبيدوا ، فاستفادوا وعادوا ليفيدوا ، ظن الرؤساء أن فى إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم ، وتقوية ركنهم ، فباءوا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم . وما بيّناه فى شأن الاسلام — ويعرفه كل من تفقه فيه — قد ظفر به من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه ، واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم(١) والى الله عاقبة الأمور

ايراد سهل الايراد

يقول قائلون اذا كان الإسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق وقال كتابه (٦ : ١٦٠ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء) فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب ، وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟

إذا كان الإسلام موحداً فما بال المسلمين عددوا ؟ اذا كان مولياً وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والأرض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً ، وكادوا يعدون ذلك فصلا من فصول التوحيد ؟

(١) قد أورد المؤلف الشواهد على هذا فى كتابه (الاسلام والنصرانية)

إذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر فى الأكوان وأطلق له العنان ، يجول فى ضمائرها بما يسعه الامكان ، ولم يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الايمان ، فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ، ظناً منه أنه قد يرضى الله بالجهل ، وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ؟

ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ؟ ما بالهم بعد أن كانوا قدوة فى الجد والعمل ، أصبحوا مثلاً فى القعود والكسل ؟

ما هذا الذى ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه ، و بين ما دعاهم إليه فتركوه ؟

اذا كان الاسلام فى قربه من العقول والقلوب على ما بينت ، فما باله اليوم على رأى القوم تقصر دون الوصول إليه يد المتناول ؟

اذا كان الاسلام يدعو إلى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لا يقرءونه إلا تغنياً ، ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم إلا تظنياً ؟

إذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال ، فما بالهم شدوهما إلى أغلال أى أغلال ؟

اذا كان قد أقام قواعد العدل ، فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل فى الظلم ؟

اذا كان الدين فى تشوف إلى حرية الأرقاء ، فما بالهم قضوا قروناً فى استعباد الأحرار ؟

اذا كان الإسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء ، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟

اذا كان الاسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه؟

اذا كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فما هذا الذى نراه بينهم فى السر والعلن ، والنفس والبدن ؟

اذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم و (ان[١] الانسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وأنهم ان لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم[٢] وشدد فى ذلك بما لم يشدد فى غيره . فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر ، ولا يتناصحون فى خير ولا شر ؟ بل ترك كل صاحبه ، وألقى حبله على غاربه ، فعاشوا أفذاذا ، وصاروا فى أعمالهم أفراداً ، لا يحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه ، وكأنه لم تجمعه معه صلة ، ولم تضمه إليه وشيجة

(١) ان هنا مكسورة حكاية لنص القرآن. أى وصرح بهذا النص (٢) هو مضمون حديث مرفوع رواه البزار والطبرانى فى الاوسط عن أبى هريرة

ما بال الأبناء يقتلون الآباء ؟ وما بال البنات يعققن الأمهات ؟ أين وشائج الرحمة ؟ أين عاطفة الرحم على القريب ؟ أين الحق الذى فرض فى أموال الأغنياء للفقراء . وقد أصبح الأغنياء يسلبون ما بقى فى أيدى أهل البأساء ؟

قبس من الإسلام أضاء الغرب كما تقول وضوءه الأعظم وشمسه الكبرى فى الشرق ، وأهله فى ظلمات لا يبصرون ، أصح هذا فى عقل؟ أو عهد فى نقل ؟ ألم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيئا وهم من أهل هذا الدين أول ما يعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات ، وقواعده وأحكامه ترهات ؟ ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الأفكار ، وبعداء الأنظار ، والى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه ، ووسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه ، كيف يجافون علوم النظر ويهزءون بها ، ويرون العمل فيها[1] عبثاً فى الدين والدنيا ، ويفتخر الكثير منهم بجهلها ، كأنه فى ذلك قد هجر منكراً ، وترفع عن دنيئة ، فمن وقف على باب العلم من المسلمين ، يجد دينه كالثوب الخلق يستحى أن يظهر به بين الناس ، ومن غرته نفسه بأنه على شيء من الدين وأنه مستمسك بعقائده ، يرى العقل جنة ، والعلم

(١) أى فى ضمن ماأرشدت اليه من النظم والفنون والصناعات

ظنة ، أليس فى هذا ما يُشهد الله وملائكته والناس أجمعين ، على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال ، وربما كان ما جاء فى الايراد قليلاً من كثير ، وقد وصف الشيخ الغزالى رحمه الله وابن الحاج وغيرهما[١] من أهل البصر فى الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ، ولكن قد أتيت فى خاصة الدين الاسلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن ، مع التدقيق فى فهم معانيه وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ، ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات فى التاريخ على ما كتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الأمم ، فذلك هو الاسلام . وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل ، مَن أحسن فى استعماله والأخذ بما أرشد إليه ، نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه . وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الأعمى إنكاراً . ولا الأصم إعراضاً ، وغاية ما قيل فى الايراد أن أعطى الطبيب المريض

(١) كالشاطبي فى كتابه الاعتصام والبركوى فى كتابه الطريقة المحمدية

دواء فصح المريض[١] وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته ، وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لا يتناوله وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه و يشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه ، وهو فى يأس من حياته ، ينتظر الموت أو تبدل سنة الله فى شفاء أمثاله

كلامنا اليوم فى الدين الاسلامى وحاله على ما بيناه وأما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن وسيكون الكلام عنهم فى كتاب آخر إن شاء الله[٢]

التصديق بما جاء به النبي محمد ﷺ

بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بينا ، وانه انما يخبر عن الله تعالى ، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره ، والايمان

(١) ان هذا المريض الذى شفى من أمراض الجهل والتقليد والرق للملوك ورؤساء الدين قد أنهكته أمراض أخرى اشتدت عليه فى هذا العصر منشؤها عبادة المادة وفوضى الدين والآداب واباحة الفواحش ولا علاج له الا بدواء الاسلام وأين يجده وأهله يقلدونه فى تلقيح أنفسهم بجميع سموم أمراضه على أمراضهم الاولى

(٢) راجع فى هذا كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية له رحمه الله فقد وفى فيه بوعده هذا ، وهو كتاب لايستغنى عن قراءته مسلم فى هذا العصر ، بل قال أحد أولى البصيرة من المسلمين انه ينبغى قراءته فى كل سنة ولو مرة واحدة . وان قارئه ليجد فيه شرحا لكثير من المسائل المجملة فى هذه الرسالة

بما جاء به ، ونعنى بما جاء به ما صرح به فى الكتاب العزيز ، وما تواتر الخبر به تواتراً صحيحاً مستوفياً لشرائطه ، وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس ـ ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم فى جنة ، وعذاب فى نار ، وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف

ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعى بظنى،وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شىء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهى عن مشابهة المخلوقين فان ورد ما يوهم ظاهره ذلك فى المتواتر ، وجب صرفه عن الظاهر ، إما بتسليم لله فى العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة(١)

(١) الواجب أن يحمل الخبر على معنى يتفق مع التنزيه الثابت بالنقل والعقل تدل عليه أساليب اللغة مع العلم بأن كل ما وصف الله تعالى به نفسه قد جاء بالكلام الذى وضعه الناس لخلقه فهو كاصطلاحات العلوم والفنون فلا يقتضى أن يكون معناه فى وصف الله تعالى عين معناه فى وصف الخلق من كل وجه ، بل يكفى أن يكون مناسبا له ، فعلم الله وقدرته وكلامه ورحمته وحبه وغضبه ليست من الأحوال والأعراض النفسية ، ويده وأصابعه ليست من الجوارح الجسمية وخلقه ورزقه واستواؤه على عرشه ليس من الحركات البدنية ، وليست معانيها مخالفة لمدلولها بالكلية ، وهذا معنى قول السلف : الاستواء معلوم والكيف مجهول . ومنه مسألة الرؤية الآتية وقاعدتهم فى ذلك أن نصفه تعالى بما وصف به نفسه بغير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل كما تقدم فى الكلام على الصفات

أما أخبار الآحاد فانما يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها . وأما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرضت له شبهة فى صحته وهو ليس من المتواتر فلا يطعن فى إيمانه عدم التصديق به . والأصل فى جميع ذلك أن من أنكر شيئاً[١] وهو يعلم أن النبى ﷺ حدث به أوقرره فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها ، ويلحق به من أهمل العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة ، وهو ما فى الكتاب وقليل من السنة فى العمل[٢]

من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هى عليه فى ظاهر القول وذهب بعقله الى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد ، بحيث لا ينقص تأويله شيئاً من قيمة الوعد والوعيد ، ولا ينقص شيئاً من بناء الشريعة فى التكليف ، كان مؤمناً حقاً وإن كان لا يصح اتخاذه قدوة فى تأويله[٣] فان الشرائع الالهية قد نظر فيها الى ما تبلغه طاقة العامة لا الى ما تشتهيه عقول الخاصة ، والأصل فى ذلك أن الايمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد فى ذلك الا احترام ماجاء به على ألسنة الرسل

(١) أى من أمر الدين الذى هو موضوع الرسالة والتبليغ عن الله تعالى
(٢) أكثر السنن المتواترة هى العملية كصفة الصلاة والحج واما الأحاديث القولية المتواترة فقيل انها لا تبلغ أقصى جمع القلة
(٣) يعنى أن التأويل بهذه الشروط لاينافى صحة الاسلام فلا يباح تكفير صاحبه إلا انه لايقتدى به فيه وهذا مذهب أهل السنة والجماعة

بقيت علينا مسألتان وضعتا من هذا العلم فى مكان من الاهتمام وما هما منه الا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه (الأولى) جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة (والأخرى) جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الأنبياء : من الأولياء والصديقين

أما الأولى فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى الى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع ، فان القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة . بل هى رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ، ومثلها لا يكون الا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة ، أو تتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة الدنيا[1] وهو مالا يمكننا معرفته وان كنا

(١) الادراك فى الحقيقة للروح وانما الحواس آلات لها وقد ثبت بالتجارب القطعية لدى علماء الشرق والغرب فى هذا العصر أن من الناس من يبصر ويقرأ وهو مغمض العينين فيما يسمونه قراءة الأفكار ويبصر بعض الأشياء دون بعض فى العمل النومى ، ومنهم من يبصر الشىء مع الحجب الكثيرة والبعد الشاسع كمن أبصر وهو بمصر قريبه فى الاسكندرية خارجا من داره إلى المحطة ـ إلى آخر ماتقدم فى حاشية ص ١١٣ فاذا كان هذا قد ثبت فى هذا العالم على خلاف المألوف فى الرؤية لكل الناس ـ فهل يليق بعاقل أن يستشكل ما هو أغرب منه وأبعد عن المألوف فى الجنة وهى من عالم الغيب المخالفة سننه ونواميسه لعالم الشهادة . وهل كان استشكال منكرى الرؤية إلا بسبب=

نصدق بوقوعه متى صح الخبر ؛ والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافاً يساويها ، فسواء كان ذلك بالبصر غير المعهود أو بحاسة أخرى فهو فى المعنى يرجع إلى قول خصومهم ، ولكن مُنى الاسلام بقوم يحبون الخلاف والله فوق ما يظنون

وأما الثانية فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو اسحاق الاسفراينى من أكابر أتباع أبى الحسن الأشعرى(*) وعلى ذلك المعتزلة إلا أبا الحسين البصرى فقال بجواز وقوعها ، وعليه جمهور الأشاعرة . واستدل الذاهبون إلى الجواز بما جاء فى الكتاب من قصة الذى عنده علم من الكتاب الواردة فى خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف ، وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها وقصة أصحاب الكهف

واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات ، وأولوا ما جاء فى الآيات : أما ان ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات فليس بصحيح لأن المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن

= قياس عالم الغيب على عالم الدنيا فى الرؤية والمرئى ؟ وهو قياس باطل ، و بطلانه فى المرئى أظهر . وقد حررت هذه المسألة فى تفسير المنار بتفصيل أثرى سلفى عصرى طويل فيراجع فى تفسير الآية ١٤٢ من سورة الاعراف ص ١٢٢ - ١٧٨ ج٩ تفسير

(*) وكذلك الحليمى من أكابرهم

الله تعالى ولا بد أن تسكتنفها حوادث تميزها عما سواها

وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه ، لأن مافى قصة مريم وآصف(١) قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه فى عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون الله فى أنبياء ذلك العهد إلا قليلا .

وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته فى خلقه ، وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته ، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز . فصار البحث فى جواز وقوع الكرامات نوعاً من البحث فى متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير ، وفى مكان الأعمال الصالحة وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الالهية وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر .

---

(١) قال بعض المفسرين فى تفسير (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك) إنه وزير لسليمان اسمه آصف بن برخيا فجاراهم المؤلف فى ذلك تنزلا ولكن هذا لم يثبت فى قرآن ولا حديث مرفوع وانما هو من الاسرائيليات . وقال بعضهم إنه سليمان نفسه ورجحه النيسابورى وقال بعضهم انه جبريل وبعضهم انه ملك آخر . وجملة القول ان إحضار العرش معجزة لنبي الله سليمان عليه السلام لاحجة فيها على مسألة الكرامات

كذلك ما قالوه فى مسألة الرزق عند مريم وانه فاكهة الصيف فى الشتاء وعكسه لم يصح فيه حديث مرفوع فهو من الاسرائيليات كما بينته فى تفسير المنار

وأما مجرد الجواز العقلى وأن صدور خارق للعـادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الالهية فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف فيـه العقلاء ، وانمـا الذى يجب الالتفات اليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الاسلام ، فيجوز لـكل مسلم باجماع الأمة أن ينـكر صدور أى كرامة كانت من أى ولى كان ولا يكون بانـكار هـذا مخالفاً لشيء من أصول الدين ، ولا مائلا عن سـنة صحيحة ، ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم ، اللهم إلا أن يكون ممـا صح فى السنة عن الصحابة .

أين هـذا الأصل المجمع عليه ممـا يهذى به جمهور المسلمين فى هـذه الأيام حيث يظنون أن الـكرامات وخوارق العادات ، أصبحت من ضروب الصناعات ، يتنافس فيهـا الأولياء ، وتتفاخر فيها همم الأصفياء(١) وهو مما يتبرأ منـه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون .

---

(١) بل يزعمون أن هؤلاء الأصفياء ولاسيما الموتى المشهورين كالذين يسمونهم الاقطاب الأربعة هم المتصرفون فى شئون العالم كله وانهم يقضون حاجات الذين يدعونهم من دون الله أو مع الله بالخوارق الممنوحة لهم من نفع وضر وغير ذلك ! (لاإله إلا الله وحده لاشريك له)

خاتمة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) وقد فسر الكفر فى هذه الآية بكفر النعمة

(وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رَهَقا * وأنَّا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحرَّوا رشداً * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا * وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا * لنفتنهم فيه، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صَعدا * وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا * وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبدَاً * قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً * قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً * قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً * إلا بلاغاً من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم

خالدين فيها أبداً * حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عددا * قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا)

صدق الله العظيم ، وبلغ رسوله الكريم ، وخسئ الشيطان الرجيم ، وحق الشكر لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم

تمت

فهرس

رسالة التوحيد

تأليف

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

فهرس رسالة التوحيد

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

مقدمة الناشر

(وضعها للطبعة الثانية ، وزاد عليها فى الطبعة السادسة)

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّين حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ التِى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمْ وَلـكِنَّ أكثر النَّاس لا يَعلمُونَ * منِيبينَ إليْه وَاتّقُوهُ وَأَقيمُوا الصَّلاةَ وَلاَ تَـكونُوا مِنَ المشْرِكينَ * مِنَ الّذِينَ فرّقوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ

سورة الروم ٣٠ : ٣٠ ـ ٣٢

ان الله جلت قدرته ، وبلغت حكمته ، قد برأ هذا الإنسان ، بفطرة أعلى من فطرة سائر أنواع الحيوان ، أودع فيه شعورا بلذات وآلام غير جسدية ، فكان له بذلك حياة غير الحياة الحيوانية ، أنشأه مستعدا لادراك معلومات غير محصورة ، إذ خلقه ليحيا حياة دائمة غير محدودة ، جعل مدار حياته على التعاون والاجتماع ، ليستعين بذلك على استجلاء ما فى الكون من النظام والابداع ، أنشأ أفراده متفاوتين فى الاستعداد للعلوم والأعمال ، ليتيسر لمجموع النوع القيام بجميع العلوم والأعمال ، فأدناهم الخدم والبناءون والزارعون ، وأعلاهم

الساسة العادلون ، والحكماء المصلحون ، فالأنبياء والمرسلون ، فهؤلاء كالمشاعر والعقول والقلوب والأرواح ، وأولئك كالأرجل والأيدى والمعد والأمعاء ، فنهم من يقوم للنوع بأدنى ما يحتاج إليه ، ومنهم من يهديه إلى أعلى ما يتشوف استعداده إليه مع إحسانه التصرف فيما هو قائم عليه وهذه الهداية هى هداية الدين الذى هو قوام الفطرة للإنسان الناهض بها إلى طلب الكمال فى العلوم والأعمال .

سار الدين بتكميل الفطرة البشرية على منهاج التدريج فى الارتقاء كما هى السنة العامة فى جميع شئون الاحياء ، حتى أكمل الله برسالة محمد خاتم النبيين والمرسلين الاسلام ، الذى بلغ بالإنسان مرتبة الاستقلال التام ، و بين كتابه أنه دين الفطرة للناس ، من جميع الشعوب والأجناس الموافق لهم فى كل مكان ، المنطبق على مصالحهم فى كل زمان ، فهو للقبائل الساذجة كالمربى الرحيم ، وللشعوب الراقية كالامام الحكيم ، كلما ساروا فى العلوم والمدنية شوطا رأوه المجلى فى ميدان السبق (٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أقام هذا الدين سلف المسلمين المتبعون ، وخذله خلفهم المبتدعون ، حتى صاروا حجة عليه عند أكثر العالمين ، إذ زينت لهم التقاليد والعادات ، أن يجعلوه حجابا دون العلوم والفنون والصناعات ، وأن يتفرقوا فيه مذاهب وشيعا ، و ينقصوا منه سننا ، و يزيدوا عليه بدعا ، وأن يجعلوا كتب العقائد ملأى بالجدل والمراء ، بين أهل المذاهب من الأموات والأحياء ، وقد مرت القرون وليس عندنا مصنف يصلح للدعوة إلى الاسلام ، على الوجه الذى اشترطه علماء الكلام ، وهو أن يكون على وجه يحرك إلى النظر ، ويدعو إلى البحث والتفكر ، حتى قام الأستاذ الامام ، الذى كان فى هذا العصر حجة الاسلام ، الشيخ محمد عبده قدس الله روحه فى دار السلام ، فكتب (رسالة التوحيد) فى بيان حقيقة هذا الدين ، فجاء

مع التزام الشرط اللائق بهذا العصر بما لم يأت بمثله أحد من المتقدمين

لا أذكر فى بيان فضل هذه الرسالة أن علم العقائد قد ارتقى فى مصر بنشرها ، وتدريس المؤلف فى الجامع الأزهر لها ، ولا أن علماء الهند ترجموها بلغة الاوردو ليدرسوها فى مدرسة عليكرة الكلية ، ولا أنها تدرس الآن فى الأزهر وسائر المعاهد الدينية ، ولا أن بعض المستشرقين ترجموها باللغة الفرنسية وطبعوها ، ولا أن علماء الأقطار الذين اطلعوا عليها قد كتبوا لمؤلفها من منثور الثناء ومنظومه ما يزيد أضعافا على حجمها ، ولا أن بعض علماء النصارى قرظوها ، وبعض أحرارهم تبرعوا بنسخ منها وزعوها ، وأن بعضهم قالوا عندما قرءوها : لوكان ما فى هذه الرسالة هو الاسلام لكنا أول من يدخل فيه ، ولكنها حكمة الشيخ محمد عبده الذى نؤمن بفضله ، وعلو كعبه ، وقد شرحت هذا فى الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الامام ، وإنما أقول هنا إنه لا يقدر هذه الرساله حق قدرها إلا من تدبر القرآن وفهمه ، وأحاط بالسيرة النبوية ونشأة الاسلام وتاريخه ، ووقف على ماطرأ عليه من البدع والأهواء ، وماوصل إليه علم الكلام من الارتقاء ، واطلع على ما كتبه فلاسفة أوربة فى الانتقاد على الأديان ، مع ما كتبوه فى بيان مزاياها وفى علوم النفس والأخلاق والاجتماع البشرى والعمران

لم تدع الرسالة شبهة على الدين إلا وكشفتها ، ولا عقدة من عقد المشكلات إلا وحلتها ، ولكن الشبهة تذكر فيها غالبا بطريق الايماء والتلويح ، دون الابانة والتصريح ، وذلك أدنى أن لا يشك الضعيف ، ولا يشتغل القوى عن المقصد الشريف ، وقد أشار إلى ذلك المصنف فى فاتحتها بقوله « راميا إلى الخلاف من مكان بعيد ، حتى ربما لا يدركه إلا الرجل الرشيد »

ولولا ما ذكره فى أولها من الاصطلاحات الكلامية لكان نفعها أكبر ، وإقبال القراء عليها أكثر ، فان أكثر أهل هذا العصر لا يفهمون

تلك الاصطلاحات ، بل أصبحت عندهم من المنفرات ، وقد قلت هذا للمؤلف فاعترف بصحته

أملى الأستاذ الامام جل هذه الرسالة ببيروت فى سن الشباب ، ثم أخذ مسودتها من بعض الطلاب ، فزاد فى أصلها ، وبادر إلى طبعها ، ثم قرأها فى الجامع الأزهر على الألوف من العلماء ونجباء المجاورين ، فظهر له فيها أغلاط لغوية ومسائل تحتاج إلى إيضاح . فكان يكتب مايراه من التنقيح والتصحيح فى حواشي النسخة التى يقرأ بها الدرس ، ثم جمع جميع ماصححه ونقحه فى جدول فكان ذلك فى سبعين موضعا أو أكثر ، و بقى كلمات نادرة قد سها عنها مع تصحيحه فى مواضع أخرى لمثلها ، فنبهت على بعضها فى الحواشى مع تصحيحها وتركت باقيها على أصلها ، ولم أزد من عندى إلا عدد السور والآيات فى شواهدها

ولما كتب إلى صديقى حموده بك عبده أخو المؤلف يأذن لى باعادة طبع الرسالة أعطانى الجدول فصححت طبعتى معارضة عليه وعلى نسخة المؤلف ، وعلقت عليها حواشي قليلة سمعت بعضها منه فى الدرس ، ولولا أنه نهى عن شرحها ، ووضع الحواشى لها ، لجاز لى أن أكثر من هذه التعليقات فأجعلها سفرا كبيرا ، ولكن ما رآه رحمه الله هو الصواب ، وما جاء به هو الحكمة وفصل الخطاب

وقد طبعها بعض تجار الكتب بغير حق طبعة رديئة كثيرة الأغلاط ولو لم يكن فيها إلا مخالفتها لما صححه ونقحه مؤلفها فى سبعين موضعا منها حتى بالزيادة والنقص لكفى فى عدم الاعتماد عليها ، فطبعات المنار هى المعتمدة وعليها المعول ، ولا يستغنى عنها من طالع الطبعة الأولى ، فرحم الله الأستاذ الامام ، ونفع برسالته الأنام . آمين

الناشر

(محمد رشيد رضا الحسينى)

صاحب مجلة المنار